الفصل الثانى

النقد الأدبى فى القرنين الثانى والثالث

رأينا قبل أن نتحدث عن النقد فى العصر العباسى أن نمهد بالكلام عن بيئة العصر وحضارته ، لأنه كما ذكرنا سابقاً أن الأدب والنقد يلتحمان التحاماً وثيقاً ببيئة العصر .

تميز العصر العباسي بالبذخ الذى كان مقصورا على فئة قليلة بيدها الامر والنهى ، أعنى أن الخلفاء العباسيين وأهل البيت العباسى والوزراء وكبار رجال الدولة ومن شايعهم وواكبهم من الشعراء والعلماء والفنانين ، كانوا يحيون حياة القصور ، بينما كان المجتمع العربى فى ذلك الوقت يعانى الفقر والبؤس ، ولكأنما قدر لأبناء هذا المجتمع أن يعملوا من أجل أن تعيش هذه الفئة فى ثراء ونعيم .

كانت قناطير الذهب والفضة تأتى من جميع أنحاء البلاد لتصب فى خزائن الدولة ، ولتصل إلى هذه الطبقة .

وتذكر كتب التاريخ بأن الخليفة المنصور قرر لكل فرد من أهل بيته ألف درهم فى كل عام[١] . وأنه ترك بعد وفاته أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم[٢] . وأن اقطاعيات «الخيزران» زوج المهدى كانت تبلغ سنوياً مائة وستين مليوناً من الدراهم[٣] .

وكثيراً ماأغدق الخلفاء والوزراء المال على الشعراء والعلماء والمغنين ، وكان الرشيد أكثرهم كرماً وسخاء ، ويقال أن مغنية المفضل ابراهيم الموصلى تجاوزت ثروته التى جمعها بصلاته له مائتى ألف دينار[٤] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى ص ٣٢٧ ـ الجزء السادس .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ـ ص ٢٣٢ ـ الجزء الثالث .
(٣) المرجع السابق : ٢٥٧ .
(٤) الاصفهانى : الأغانى ـ ص ١٩٢ ـ الجزء الخامس ـ دار الكتب .

ونافس البرامكة الخلفاء فى ظاهرة الثراء ، وكثيراً ما أنفقوا بسخاء ، وأجزلوا العطاء ولا غرابة فى هذا ، فقد كانت خزائن بيت المال بأيديهم ، ومنحهم الخلفاء وبخاصة الرشيد الحرية فى انفاقها إلى حد استغلوا فيه هذه الثقة . وقد أثر هذا الثراء فى حياتهم المادية كما تقول هذه الرواية للأصمعى .

«مارأيت أنجب من البرامكة رجلا وأطفالا ، ولا أشرف منهم أحوالا ، ما أعلم انى حضرت يحيى والفضل ولا جعفرا إلا انصرفت عنهم ولإخوانى بالحباء الجزيل .

«ثم قال :

ـ طرب الفضل بن يحيى إلى مذاكرتى ، فأتانى رسوله ، وكان يوما باردا ذا حر وقر :

«فقال :

ـ أجب الوزير :

«فمضيت معه ، فلما دخلت عليه إذا هو فى بهوله ، قد فرش بالسمور ، وهو فى دست منه ، وعلى ظهره دواج سمور أشهب ، مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضه ، فوقه أثقية ذهب ، فى وسطها تمثال أسد رابض ، فى عينيه ياقوتتان تتوقدان ، وفوق الصينية ابريق زجاج فرعونى ، وكأس كأنها جوهرة محفورة ، تسع رطلا ، لا أظنها يفى بها مال كثير ، وهو على سرير من عاج ، وأنا على ثياب قطن . فسلمت عليه ، فرد السلام وقال لى :

ـ ياأصمعى : ليس هذا من ثياب هذا اليوم .

قلت :

ـ أصلح الله الوزير .

«فأتيت بمثل ماعليه فلبسته حتى الجورب ، ثم أتى بخوان لم أدر ماجنسه غير أنى تحيرت فى جنسه وبصحفه مشمسه ، فيها لون من مخ الطير ، فتناولتها منها «ثم تتابعت الالوان ، فأكلت من جميع ماحضر ، ألا والذى اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم وآله بالرسالة ماعرفت منها لوناً واحدا ، الا انى لم آكل فى الدنيا شيئا يدانيها قط لذة وطيبا عند خليفة ولا ملك . ثم رفع الخوان ، وأتينا بألوان من الطيب ، فغسلنا أيدينا ، وكنت كلما استعملت غيره زاد عليه طيبا»[١] .

ويذكر صاحب الاغانى أنهم أعطوا ابراهيم الموصلى ذات يوم ستمائه ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألف درهم[٢] . وكان لهذا العطاء أثر فى النهضة الأدبية والفكرية .

وكان لهؤلاء من رجال الأدب والفن والفكر مايشبه الراتب الشهرى أو السنوى الذى يكفيهم مئونة العيش ، ووصل هذا الراتب عند بعض الادباء والمغنين إلى حد الثراء الفاحش ، ويقول صاحب الأغانى أن راتب ابراهيم الموصلى المغنى وصل عشرة آلاف درهم فى الشهر بالإضافة إلى ماتنتجه ضياعه وإقطاعياته الخاصة التى امتلكتها بصلاته بالخلفاء والبرامكة[٣] .

أما أبو يوسف القاضى فتذكر الروايات أن زبيدة زوجة الرشيد قد أعجبها احدى فتاواه ، فمنحته حقا من فضة بداخله حقان مملوءان طيبا ، وبأحد الحقين جام من ذهب مملؤ دراهم وبالآخر جام من فضة مملوء بالذهب مع غلمان وتخوت وبعض الدواب الفارهة[٤] .

وما يقال عن ابراهيم الموصلى وابى يوسف نقوله عن الأصمعى الذى أثرى هو الآخر ثراء فاحشا بصلاته بالرشيد والبرامكة .

---

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء - ص ٢١٤ .
(٢) الاصفهانى : الاغانى - ص ٣٨ الجزء الخامس .
(٣) المرجع السابق - ص ١٦٣ - الجزء الخامس .
(٤) المسعودى : مروج الذهب - ص ٢٦٠ - الجزء الثالث .

وكما أشرنا ، انعكس أثر هذا الثراء على حيوات الخلفاء والوزراء ، والبرامكة ، وكان من نتاجه انتشار ظاهرة الرقيق والجوارى فى العصر العباسى كما كان من أسبابها أسرى الحروب .

وقد نهى الإسلام عن هذه الظاهرة ، وجعلها مقصورة على أسرى الحرب ولكن تجارة الرقيق انتشرت بعد الفتوحات وبخاصة فى العصر العباسى ، وشاعت فى بلاد الفرس والدولة البيزنطية ، وعظمت عند العباسيين ، ووجدنا ببغداد شارع أطلق عليه شارع الرقيق[١] .

وكان المصدر الذى يجلب منه الرقيق أفريقيا الشرقية والهند وبيزنطه ، ويعمل الزنوج منهم فى فلاحة الأرض ، بينما كانت تقوم فئة أخرى منهم بالخدمة فى القصور .

ويبدو أن الخليفة هارون الرشيد قد أعجب بهذه الظاهرة فاستهوته ، ويذكر صاحب الاغانى أن قصوره جمعت اربعمائة منهم .

وكان الرقيق من الجاريات أكثر عددا من الرجال ، وتجارتهن أكثر رواجا بسبب ارتفاع أثمانهن ولا نظن أننا نغالى إذا قلنا إن قصور خلفاء العباسيين قد اكتظت بهن ، ولا غرابة فى هذا فقد أحلت العقيدة الإسلامية للمسلم أن يمتلك منهن مايشاء ، بينما قيدته بأربع من الحرائر ، وكثيرا ما أثرت الجوارى فى الحياة والحكم فى العصر العباسى .

ووجدنا البعض من الجوارى على دراية واسعة بفنون الآداب والغناء والموسيقى ، وإلى جانب مامنحن من جمال ، كن يجمعن حلاوة الحديث ، ومنهن من يجدن نظم الشعر مثل «عنان» جارية «الناطفى» ومنهن من يجدن الغناء مثا «دنانير» جارية البرامكة ، والبعض منهن يجدن الرقص .

وقد بلغ الرقص حظاً واسعاً من الرقى ، وكثيراً ماصاحب الغناء ، وكانت له آلات خاصة وإيقاعات متميزة وملبس خاص .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ـ ص ٢١٦ ـ الجزء الثالث .

ولما كان العصر يمثل امتزاج الحضارة العربية بالحضارتين الفارسية والرومانية ، فقد أثرت الحضارتان الاخيرتان بمحاسنهما وسيئاتهما فى المجتمع العباسى فى ذلك الوقت ، ومن هذه السيئات ما أخذه العباسيون عن الفرس من فنون اللهو والمجون (شرب الخمر) .

«بنى للمخلوع مجلس لم تر للعرب والعجم مثله ، قد صور فيه كل التصاوير ، وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه ، وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة ، وفرش بمثل ذلك من الفرش ، فلما فرغ من جميع أسبابه ، وعرف ذلك ، اختار له يوماً، وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليصطحبوا معه فيه ، فلم يتخلف أحد ، وكان فيمن حضر أبو نواس ، فدخلوا فرأوا أساس[١] ، لم يروا مثله قط ، ولم يسمعوا به ، من ايوان مشرف فائح فاسح ، يسافر فيه البصر ، وجعل كالبيضة بياضاً ، ثم ذهب بالابريز[٢] المخالف بينه باللازورد[٣] ذى أبواب عظام ، ومصاريع علاظ تتلأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رءوسها بالجوهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان[٤] ، رنضد فيه العنبر الاشعب والكافور المصعد ، وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين ، فدعوا له وأثنوا عليه وأخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ، ومنزلتهم منه ، ثم أقبل عليهم فقال :

ـ انى أحببت أن افرغ متعة هذا المجلس معكم ، واصطبح فيه بكم ، وقد ترون حسنه ، فلا تنغصونى ذلك بالتكلف ، ولا تكدروا سرورى ـ بالتحفظ ، ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبذلوا ، فما العيش الا فى ذلك :

فقالوا :

---

(١) الاس : البناء .
(٢) الابريز : الذهب الخالص .
(٣) اللازورد : معدن يستعمل للحلى .
(٤) العقيان : الذهب الخالص .

- ياأمير المؤمنين ، بالطائر الميمون والكوكب السعدى والجد الصاعد والأمر العالى والظفر والفوز ، ووفقت ياأمير المؤمنين ، وفقت ولم تزل موفقاً .

ثم لما طعموا أتى بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق ، وأطيب ريحا من نسيم المحبوب ، ، وقام سقاة كالبدور ، بكئوس كالنجوم ، فطافوا عليهم وعملت الستائر بزاهرها ، فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره ، فى مذاكرة كقطع الرياض ، ونشيد كالدر المفصل بالعقيان ، وسماع يحيى النفوس ويزيد فى الاعمار ، فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار فى صوانى ، فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها ، والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير ، من الصرف والممزوج ، وليس يمنع أحد منهم مما يريد ، ولا يكره على مايأباه ، وكان جيد الشراب ، فصبروا معه إلى ان سكر فنام ، ونام جميع من فى المجلس عند ذلك إلا أبا نواس فانه ثبت مكانه فشرب وحده فلما كان السحر دنا من محمد فقال :

- ياأمير المؤمنين

قال :

- لبيك ياخير الندامى

فقال أبونواس :

- ياسيد العالمين ، أما ترى رقة هذا النسيم ، وطيب هذه الشمال ، وبرد هذا السحر ، وصحة هذا الهواء المعتدل والجو الصافى ، وبهيج هذه الأنوار ؟ فلما سمع محمد وصفه استوى جالسا وقال :

- ياأبا نواس ، مابى للشرب موضع ، ولا للسهر مكان ، وقد بسطتنى بمنثور وصفك فنشطنى بمنظومه للشرب .

فأنشأ يقول :

فيه نديمك قد نعس ... يسقيك كأسا فى الغلس

صرفا كأن شعاعها ... فى كف شاربها - قبس

تـــذر الفتـــى وكأنمـــا بلســـانه منهـــا عـــرس
يدعـــى فيرفـــع رأســـه فـــاذا استقـــل بـــه نكـــس
يسقيكمـــــا ذو قرطـــق يلهـــى ويـــؤدى مـــن حبـــس(١)
خنـــث الجفـــون كأنـــه ظبـــى الريـــاض اذا نعـــس
أضحـــى الامـــام محمـــد للـــدين نـــورا يقتبـــس
ورث الخـــلافة خمســـة وبخيـــر سادسهـــم ســـدس
تبكـــى البـــدور لضحـــكه والســـيف يضحـــك ان عـــبس

فارتاع المخلوع ودعا بالشراب فشرب معه(٢)

وللإنصاف نقول ، بأن ظاهرة شرب الخمر عند خلفاء العصر العباسى ، هى فى الحقيقة امتداد لما كان يفعله آخر خلفاء العصر الأموى وأثرت هذه الظاهرة فى شعراء العصرين الأموى والعباسى ، فعرف الأخطل شاعر العصر الأموى بخمرياته ، ثم كان أبو نواس شاعر العصر العباسى الذى تفوق على الأخطل بخمرياته .

ولقد أكثر أبو نواس من شرب الخمر إلى حد الادمان ، وكان يحبها ويعشقها

وكانت الخمريات من أروع شعر النواسى ، وكان الشاعر فيها صادقا أشد مايكون الصدق .

ودار نـــدمى عطلـــوها ، وأدلجوا بهـــا أثـر منهم جديد ودارس(٣)
مساحب من جر الزقاق على الثرى واضغـاث ريحان جنى ويابس(٤)

---

(١) القرطق : نوع من الملابس .
(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ـ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .
(٣) أدلجوا : ساروا الليل كله أو آخره . دارس : من درس الرسم عفا وتغير .
(٤) الزقاق : أوعية الخمر . اضغاث ريحان : جمع ضغث ـ والضغث القبضة منه .

حبست بها صحبى فجددت عهـدهم ... وانى علـى امثـال تلك لحابس

ولم أدر من هم ؟ غير ماشهـدت به ... بشرقى ساباط الديار البسابس (١)

أقمنا بهـا يوما ، ويوما ، وثالثا ... ويـوما له يـوم الترحل خامس

تدار علينـا الراح فـى عسجـديه ... حبتهـا بانواع التصاوير فارس (٢)

قرارتهـا كسرى ، وفـى جنباتهـا ... مها تدريهـا بالقسى الفـوارس

فالخمـر مـازرت عليـه جيوشهـا ... وللمـاء ما دارت عليـه القـلانس

وتقول الروايات عن مناسبة هذه القصيدة ، إن أبا نواس قد أخذ بعض صحبه ومر على المدائن مقر الأكاسرة ، فرأى الشاعر بعض حاناتهم ، ولم يكن قد بقى منها غير أطلال ، فنظم هذه القصيدة التى تعد من عيون خمرياته ، واستشهد بها الجاحظ على أنها مما لا تتاح إلا للقليل من الشعراء (٣) .

وأنت واجد الشاعر فى القصيدة يتغنى بالخمر ويتفنن فى أوصافها ، فيصف نشوتها وماتحدثه فى النفس ، كما يصف دنها وكأسها ومجلسها .

وأثرت هذه الظاهرة الخبيثة فى حياة بعض الخلفاء والشعراء ، فدفعت بهم إلى اللهو والمجون والاباحية والعبث ، وانطلق هؤلاء وهؤلاء بلا وزاع من ضمير أو دين إلى ارتكاب الآثام ، وقد تحرروا من قوانين الأخلاق وتعاليم الدين . ومع الخمر ، كان الغناء والرقص ، والقيان ، وضرب الطبول والدفوف ، ومع الخمر والغناء والرقص والموسيقى ، كانت الجوارى من الجنسيات المختلفة ، والكثيرات منهن ماجنات مائعات ، تعربدن مع الرجال والشعراء بما امتلكن من وسائل الاغراء الفتنة ، وتستكثرن من اتخاذ الصحاب .

يقول الجاحظ :

---

(١) ساباط : مدينة فارسية قريبة من المدائن . البسابس : المقفرة .

(٢) عسجديه : ذهبيه .

(٣) ابو نواس : الديوان : ص ٣٧ .

«ربما اجتمع عند القينة من معشرقيها ثلاثة أو أربعة .. فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى و وتغمز هذا بذلك ، وتعطى واحدا سرها والآخر علانيتها ، وتوهمه انها له دون الآخر ، وأن الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين ، وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوى بها القيان لكفاه ..

«كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن ، والأخلاق بالمنشأ وهى انما تنشأ من لون مولدها إلى أوان فواتها يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وبين الخلفاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت[١] فصاعدا . يكون الصوت فيها بين البيتين إلى أربعة أبيات . وعدد مايدخل فى ذلك من الشعرا إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت . ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب وانما بنيت كلها على ذكر القيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة[٢] .

وفى العصر العباسى انتشرت جرثومة خبيثة بين الخلفاء والشعراء ، ما نظن اننا وجدنا أعراضا لها فى العصور السابقة . ولا نغالى إذا قلنا إن هذا العصر يعد أول العصور الاسلامية الذى يصاب بدائها . وكان عشق الغلمان من الانحرافات التى انغمس فيها بعض الأدباء والخلفاء .

كان «والبه بن الحباب» أول من اشتهر بالغزل فيهم ، وتقول الروايات إن النواسى أخذ عنه هذه الآفة الرذيلة ، ويتحمل والبه مسئولية انتشارها فى الدولة العباسية ، وكان غزله فيهم يقتل كرامة الرجال والشباب ، وانا زعيم ان مصدر هذه الظاهرة كثرة الغلمان الخصيان فى بغداد وغيرها من المدن العراقية . وكان الكثير منهم يلبسون لبس النساء ، والغريب العجيب أن نجد

---

(١) الصوت : أغنية .

(٢) الجاحظ : ثلاث رسائل للجاحظ ص ٧١ .

من الجوارى من ترتدى ملابس الغلمان ، لعل فى هذا اللبس مايلفت انتباه الرجال .

وتذكر الروايات أن الأمين عقب خلافته أعجب بالغلمان وتعلق بهم ، وشاع أمره بين الناس ، وحاولت أمه زبيده ابعاده عنهم قطعا للألسنة ، فبعثت إليه بعشرات الجوارى والبستهن زى الرجال حتى لا يتعلق بهم[١] .

وقد أطلق على هؤلاء الجوارى الغلاميات ، وكثيراً مانجدهن فى الساقيات بالحانيات ، وأعجب بهن النواسى ، وذكرهن فى خمرياته بضمير المذكر .

فاطيب منه صافية شمول ... يطوف بكاسها ساق أديب
أقامت حقبة فى قعر دن ... تفور ومايحس لها لهيب
كأن هديرها فى الدن يحكى ... قراة القس قابله الصليب
تمد بها إليك يدا غلام ... أغن كأنه رشا ربيب
غدته صنعة الدايات حتى ... زها فزها به دل وطيب
يجر لك العنان إذا حاها ... ويفتح عقد تكته الدبيب
وإن جمشته خلبتك منه ... طرائف تستخف لها القلوب
يكاد من الدلال اذا تثنى ... عليك ومن تساقطه يذوب[٢]

وكان لهذه الحياة الماجنة أثرها فى ظهور دعوة جديدة راح ينادى بها النواسى وكانت غايته التجديد ، فثار على الشعر القديم ، وكان من الشعراء المجددين فى الشعر العباسى .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ص ٢٤٤ الجزء الرابع .
(٢) ابو نواس : الديوان ص ١١ .

أراد النواسى أن يتخذ لنفسه مذهباً خاصاً ، كما كان يريد القضاء على كل قديم والتمسك بمذهبه الشعرى ، أو بالأحرى بهذه الخمريات وكانت دعواه تنادى بافتتاح القصائد بالخمر . وترك البيداء ، والكف عن هند ونوار واسماء وغيرها من أسماء الجاهلية .

كان الشاعر ناقما على القديم ، لانه فى تصوره لا حياة فيه ، والحقيقة أن عصر النواسى انعكس على شعره ، وكان مرآة له ، وأراد أن يتخذ من مجون العصر وفسقه مذهبا جديدا فى الشعر ، وراح ينادى بهذا المذهب بلا تردد ، وقد عانى الكثير فى سبيل انتشار مذهبه ، وكم عرضته خمرياته للحبس ، لكنه لم يأبه بشىء وتمسك بمذهبه .

وللإنصاف ، نقول إن هذه الخمريات من أروع شعره ـ وكما قلنا ـ كان الرجل صادقا فيها .

يقول :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأسا اذا انحدرت من حلق شاربها ... أجدته حسرتها فى العين والخد

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... فى كف جارية ممشوقة القد

تسقيك من يدها خمرا ومن فمها ... خمرا فما بالك من سكرين من بد

لى نشوتان وللندمان واحدة ... شىء خصصت به من بينهم وحدى[1]

وهذه الأبيات من أجود شعره ، فأنت تحس فيها بالجمال الذى يشدك اليه شدا ، وأنت تجد الجمال فى كل كلمة من الكلمات ، وتحس بالرقة فى ألفاظها ففيها جمال الموسيقى ، وحسن الانشاد ، وعذوبة الطرب والغناء .

---

(١) الديوان : ص ٢٧ .

فاذا حللت المعانى والصور ، فستجد فيها ايضاً الخصوبة ، لقد أبدع وصف الخمر ، ورسم الكأس فأبدع رسمها ، وتحدث عن الجارية فأبدع وصفها ، ونجد كل هذه المعانى والصور فى بيت واحد ، بل لقد جمع الشاعر فى بيت شعرى فنى الغزل والخمر .

وأنت تشعر عند سماعك هذه الأبيات كما لو كنت تصغى إلى قطعة موسيقية جميلة .

وأنت واجد الشاعر فى هذه الأبيات ينادى بدعوة جديدة ، تنبذ القديم ، وتدعو إلى التحرر من قيوده ، أو قل هى فى الحقيقة دعوة إلى اللذة والفسق والمجون ، سمها بهذا إذا شئت .

لقد كان مذهب النواسى ينادى باللهو والعربدة ، وهو ما أخذه عن الفرس ، أو قل ما أعجبه من رذائل حضارتهم .

«على أنه من الحق أن نعرف لأبى نواس شيئاً غير هذا الفسق والاغراق فى المجون ، وهو انه يريد أن يتخذ ـ ويتخذ الناس معه ـ فى الشعر مذهبا جديدا ، وهو الترفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ، لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، ومألفوا من ضروب العيش ، فاذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذى يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى الابل والشاء ، وانما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف»[1] .

---

(١) طه حسين : حديث الأربعاء ص ٩٠ الجزء الثانى .

وأنت واجد هذا كله فى «همزينه» المشهورة ، فتحس فيها بالصدق والاخلاص ، وتصور لنا القصيدة جنون الشاعر بالخمر ، فهى الداء والدواء ، وهو لايستطيع الحياة بدونها .

ويذكر الرواة فى مناسبتها أن «ابراهيم النظام» وهو من رجال المعتزلة طلب من صاحبه الشاعر اعتناق مذهبه الدينى ، ونصحه بالابتعاد عن الخمر التى يعدها الاسلام من الكبائر ، لكن نصائح النظام لم تجد أذنا صاغية ، فقد غاب عنه أن رفيقه يدين بمذهب الشعوبية ، ورغاب عنه أيضاً ان الخمر قد تمكنت منه ، وأصبحت تمثل مذهبه الشعرى الجديد .

أنشد أبو نواس هذه القصيدة معارضا فيها مبادئ صاحبه ، فكان مذهب الرجل فى الشعر يقوم على الفسق والعبث ، والقضاء على القديم بأطلاله وديارة وغزله التقليدى . ويتابع النواسى فى هذه القصيدة نشر الدعوة ، ويطالب الشعراء بالإقتداء به ، وان يتخذوه مثلا لهم ، وكفاهم البكاء على الاطلال والديار ، والتغزل بهند وليلى وأسماء ولفظ الناقة بما تركته من أثر بال . وهى الأصول والقواعد والاشكال التى ذكرها ابن قتيبة فى كتابه وقال إنها كانت من وضع شعراء الجاهلية واتخذها الشعراء من بعدهم امثلة لهم ، ويرى أبو نواس أن الأولى بشعراء عصره ان يبكوا الخمر ، لأنها حياة ، وتبعث السرور فى الصخو ، وتطرد الملل من النفوس الحزينة ، وان عليهم ذبح الشاة ، بحيث لا تترك ظلا فى شعرهم .

شتان إذا بين الاطلال الجامدة ، والخمر التى تمثل الحياة بما فيها من نعيم ولذة .

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... ردواتى بالتى كانت هى الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر ... لها محيان لوطى وزناء

قامت بإبريقها ، والليل معتكر ... فلاح من وجهها فى البيت لألاء[١]

فأرسلت من فم الإبريق صافية ... كأنما اخذها بالعين اغفاء

رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة ، وجفا عن شكلها الماء

فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء

دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يصيبهم إلا بما شاءوا

لتلك أبكى ، ولا أبكى لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء

حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها ... وأن تروح عليها الإبل والشاء

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئا ، وغابت عنك أشياء

لا تخطر العفو ان كنت امرأ حرجا ... فان حظركه[٢] فى الدين ازراء[٣]

وللانصاف نقول بان النواسى لم يكن يقصد بخمرياته الهزل والمزاح والمجون فحسب ، وإنما كان يريد بهذه القصائد شيئا جديدا على الأدب لم يسبقه إليه أحد ، ولم يكن يهدف العربدة لمجرد العربدة وحدها ، بل كان يرمى إلى التجديد فى الشعر العباسى وهو تجديد نزعم أن له خطره على الأدب بعامة وشعر العصر بخاصة .

ولمحمد مندور رأى فى تجديد النواسى .

«ظهر أبو نواس فدعا إلى تجديد الشعر ، ومع ذلك لم تحتدم الخصومة حول دعوته ، فهل ذلك لأن النقد لم يكن قد نما بعد ولا وضعت فيه أصول ومؤلفات ، أم كان لأن تجديده لم يكن بعيد المدى فكان نصيبه الأهمال ؟

---

(١) معتكر : مظلم .

(٢) حظركه : حظرك إياه .

(٣) الديوان : ص ٦ ـ ٧ .

أم كان لأن أبا نواس رغم أنه مولد أعجمى ـ كان يجيد اللغة العربية ويحذق الكتابة فيها فجاء شعره غريباً أصيلا لم يخرج فى شئ عن عمود الشعر ؟ لا ريب فى أن كل من هذه الأسئلة من الصحة ، ولعل فى اجتماعها مايساعد على تفسير تلك الظاهرة»(١) .

ويقول أيضا :

«وإذن فدعوة أبى نواس لم تكن من الناحية الفنية ضرورة حتمية ، وبخاصة وأنها لم تعد أن تكون مجاراة للشعر القديم ، والمجاراة أخطر من التقليد ، وذلك لأننا كنا نفهم أن يدعو إلى نوع جديد من الشعر ، واما ان يحافظ على الهياكل القديمة للقصيدة مستبدلا ديباجة بأخرى وأن يدعو إلى الحديث فى موضوعات لا تستطيع أن تحرك نفوس الجميع فذلك مالا يمكن أن يعتبر خلقا لشعر جديد .

«ولو أننا أضفنا إلى ذلك أن دعوته كانت مشوبة بروح الشعوبية والغض من شأن العرب وتقاليد العرب ، وأن معظم الأغراض التى طرقها كان العرب قد سبقوا إليها ، وان ما لم يسبقوا إليه كان شيئا تافها كالغزل بالمذكر ، كما أنه هو نفسه لم يساير مذهبه إلى النهاية ، بل كان يعود فى مدائحه إلى مذاهب القدماء ترضية لممدوحية وضمانا لنوالهم ـ نقول إننا لو أضفنا كل هذا إلى ماسبق ، لفهمنا أسباب اخفاق تلك المحاولة وعدم مسايرة الشعراء له»(٢) .

ونحن نظلم النواسى إذا واكبنا مندور وقلنا أن دعوة الرجل كانت مجاراة للقصيدة الجاهلية ، وان قصائده لا يمكن اعتبارها خلقا لشعر جديد .

إن الجديد الذى أحدثه النواسى كان فى اللفظ والمعنى : مصداق ذلك ماعرضناه من نماذج لقصائده ، وفيها تتجسد ملامح العصر و...

---

(١) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ ـ ٧٩ .

obeikandl.com

ومن ملامح التجديد فى شعر النواسى هذه المقطوعة التى نظمها الشاعر على الوزن الراقص بعنوان «محنة الحب» ويقول فيها :

حامـــل الهـــوى تعـــب يستخفـــه الطـــرب
إن بكـــى يحـــق لـــه ليـــس مـــا بـــه لعـــب
تضحكـــين لاهيـــة والمحـــب ينتحـــب
تعجبـــين مـــن سقمـــى صحـــتى هـــى العجـــب
كلـــما انقضـــى ســـبب مـــنك عـــادلى ســـبب[1]

وأنا زعيم ان هذا الوزن الراقص قد حاول فيه أبو نواس التطوير من شكل القصيدة العربية ، وأثر هذا اللون من الابحر الراقصة فى الشعراء العرب بالأندلس ، كما أعجب به شعراء حركة البعث والجماعات الأدبية المعاصرة (الديوان ، المهجر ، ابولو) وراحوا ينظمون شعرا يحاكون فيه هذه الأبحر الراقصة .

ويزعم العقاد ان التجديد في شعر النواسى لم يكن بدافع التطوير فى شكل القصيدة ومضمونها ، وإنما كان يعنى فى الدرجة الأولى ارضاء لشخصيته النرجسية ورغبة فى الظهور[2] .

وتفترق بنا السبل مع العقاد ، ونرى ان دعوة النواسى قد أثرت فى الشعراء الذين أتوا من بعده - فوجدنا المتنبى يفتتح قصائده بالخيل - كما رأينا البحترى وقد افتتحها بوصف السفينة .

ونرى أن دعوة ابى نواس إضافة فى النقد الأدبى ، واننا نظلم الشاعر عندما يطلب منه مندور أن يسبق عصره بكثير - ويحدث طفرات فى شكل القصيدة ومضمونها .

---

(١) الديوان : ص ٢٢٧ .
(٢) عباس محمود العقاد : ابون نواس ص ١٢٢ .

وعند تقييمنا لشاعر ، فعلينا أن ننقده فى حدود عصره ، ولا نقومه بمعايير النقد الأدبى المعاصر ، فهل كان مندور يريد من النواسى ان يصل بتجديده إلى ماوصلنا اليه من الحركات الشعرية فى عالمنا العربى المعاصر . ونرى أن دعوة النواسى لم تحقق مضمان ذلك تأثر بعض شعراء العصر به ، وحيث صنفهم ابن المعتز فى كتابه «طبقات الشعراء» مع طبقة شعراء المجون .

ومن سيئات هذه الحضارات أيضاً الشعوبية والزندقة وكانتا من سمات العصر ، وقد ثار الاسلام على العصبية القبلية التى سادت العصر الجاهلى ، وفى عهد الأمويين عادت النعرة القبلية ومعها عصبية الفرس والموالى . واتسع انتشارها فى عهد العباسيين ، وأصبح للفرس مكانة عظيمة فى الدولة ، وراحوا يفاخرون بحضارتهم ، ووصلت بهم العصبية إلى حد التطاول على المسلمين وقالوا إن العرب من البدو رعاة الاغنام والابل . وانهم يفتقدون الحضارة والمدنية والمعارف ، فأين هذه البداوة من ملك كسرى ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية ! ؟ .

وانا زعيم بأن العرب قد أهدوا هؤلاء الموالى سلاحا اتخذوه مادة للطعون التى وجهوها إليهم وذلك عن طريق الهجاء الذى تجسد فى شعر العصرين الجاهلى والأموى .

ويعد بشار من أخطر شعراء الشعوبية ، وراح يشن حربا عنيفة على العرب ، وكثيرا مافخر بقومه من الفرس والرومان ، فقد كان لوالد فارسى وأم رومية . كما كان يزعم انه ينتسب إلى قياصرة الروم .

هـــل مـن رســول مخبـــر عنـــى جميــع العـــرب

وكثيراً ما ادت هذه الشعوبية إلى الزندقة ، ودفعت المغالين إلى الالحاد فى الدين ، وحديث الموالى عن حضارتهم القديمة كان يجرهم إلى الكلام عن دياناتهم من زردشتية ومانوية ومزدكية ، وكلها ديانات ترفضها العقيدة الاسلامية .

والكلمة دخيله على اللغة العربية ، أخذها العرب عن الفرس ، وكانت تعنى كل ملحد بالدين الاسلامى ، وكل فاسق أثيم .

وراح الفرس يعملون على انتشار ديانتهم القديمة فى العصر العباسى ، وفى ظنى أن المعاملة الطيبة التى عامل بها الاسلام المجوس فى العصور السابقة مكنتهم من الدعاية لهذه الديانات التى كانت تمثل مصدرا من مصادر حضارتهم القديمة فوجدنا الشاعر بشار بن برد وهو من الشعراء الموالى يدعو إلى عبادة زردشت فيقول :

أبليس أفضل من ابيكم آدم فتبصروا يامعشر الفجار

النار عنصره وآدم طينه والطين لا يسمو سمو النار

ففى هذين البيتين يدعو بشار إلى عبادة دين الفرس القديم وهو عبادة النار ومن يقرأ البيتين يحس أن الشاعر جعل شعره بوق دعاية لنشر هذا الدين الفارسى الذى نادى به «زردشت» .

ولقد تنبه خلفاء العصر العباسى وبخاصة المهدى لخطورة انتشار هذه الديانات الفارسية القديمة ، ولمسوا فيها خطرا على العقيدة الاسلامية ، ولهذا أعلنها المهدى حربا عنيفة على كل من يعتنقها من المسلمين ، وأصدر الأوامر بقتل الكثير من الأدباء الزنادقة ، منهم ابن المقفع ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد .

ويبدو أن العصر العباسى ، كان عصر المتناقضات ، ومع المجون والزندقة كان الزهد ، ومعه ظهرت بواكير التصوف .

اذا ما انتقلنا إلى حياة العصر علميا وفكريا ، فنحن واجدوه وقد طفر طفرة واسعة ، وكان هذا نتاج الفتوحات الاسلامية وامتزاج الحضارة العربية بالحضارتين اليونانية والفارسية وغيرهما .

ولهذا دخلت اللغة العربية بعض الألفاظ من يونانية وفارسية ، ومع ذلك ظلت اللغة الفصحى المثل الأعلى لكل العرب وبخاصة العلماء والمثقفين ، وحتى هؤلاء من الموالى والزنادقة من الشعوبيين ، لم يستطيعوا

التخلص من اللغة العربية الفصحى ، فأتخذوها أداة التعبير فى الأدب والفكر لأنها لغة القرآن الكريم .

وظهر فى العصر نظام الكتاتيب ، وفى هذه الكتاتيب كان المعلمون يعلمون الناشئة من العامية القرآن الكريم والنحو والعروض ، وكان لأبناء الطبقات الرفيعة والخاصة معلمون . فكان المفضل الضبى صاحب «المفضليات» معلم المهدى ، والكسائى معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون .

واتخذ العرب من المساجد معاهد للعلم والدراسة ، وكانت أشبه ماتكون بالجامع الأزهر ، فرأينا التلاميذ يلتفون حول الأساتذة ، يسجلون مايلقونه من محاضرات فى اللغة والنحو والأدب والقرآن والتفسير . ولم تكن المعرفة مقصورة على فئة الخاصة وحدها ، وتزود بها أبناء العامة ، وتقول المصادر ان أعلام الأدب والنقد كانوا من هؤلاء الأبناء ، فكان بشار بن برد من أب يضرب اللبن ، وأبو نواس من أم تغزل الصوف ، وكان أبو العتاهية يبيع للناس فى صغره الخزف فى شوارع الكوفة ، وابو تمام من أب عطار ، أما أبو مسلم بن الوليد فكان حائكا .

وكثيرا ماكان المعلمون الذين يعلمون الناشئة - وبخاصة طبقة ابناء الخلفاء - من الشعراء ، وكان لعلماء اللغة الذين كانوا يلقون بالدروس والمحاضرات فى المساجد أثر فى نهضة الشعر ، بل أنت واجد من هؤلاء العلماء اللغويين بعض رواة الشعر من الشعراء مثل حماد والخليل بن أحمد وخلف الأحمر والأصمعى .

وكان بعض شعراء العصر يعرضون قصائدهم على علماء اللغة قبل القائها فى المحافل ، فإن نالت اعجاب العلماء راحوا ينشدوها ، وان استهجنوها راحوا ينظمون قصائد أخرى لعلها تحظى باعجابهم ، ويذكر المرزبانى وصاحب الأغانى الكثير من الروايات التى تشير إلى عرض الشعراء قصائدهم على اللغويين لاجازتها[١] . وجاز لنا القول ان نطلق على هذا النقد (النقد اللغوى) .

---

(١) ارجع إلى :
أ - الاصفهانى : الأغانى ص ٨٢ وما بعدها الجزء العاشر «دار الكتب» .
ب - المرزبانى : الموشح ص ٣٥٨ ومابعدها .

واتخذ علماء اللغة من الشعر القديم مثلا أعلى لهم ، وطلبوا من الشعراء أن يسيروا على هدى الشعراء القدامى ، ولهذا لم يعجب هؤلاء اللغويون بالمجددين من شعراء العصر ، بينما كانوا يستحسنون الشعراء الذين يقلدون شعر الجاهليين .

ويروى المرزبانى رواية لأحد هؤلاء العلماء يقول فيها :

«انما أشعار هؤلاء المحدثين ـ مثل أبو نواس وغيره ـ مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته أزداد طيبا»[١] .

ويزعم هؤلاء اللغويون أن المحدثين وعلى رأسهم بشار وأبى نواس قد أساءوا إلى اللغة الشعرية لأنهم لم يلتزموا باللغة التى اتخذها القدامى من الجاهليين أداة فى شعرهم ، ويضيفون بأن هؤلاء المحدثين قد حشروا فى قصائدهم بعض الألفاظ الدخيلة الوافدة من الحضارات التى امتزجت بالحضارة العربية ولهجات البلدان التى فتحوها .

ولم يتعرض هؤلاء العلماء لمشكلة لغة القدامى فحسب ، بل راحوا ـ يوجهون النقد النحوى إلى الشعراء ، ويذكرون الأخطاء النحوية التى وقع فيها المحدثون ، وكثيرا ما زعم هؤلاء المولدون وعلى رأسهم النواسى أن ضرورات القصيدة هى التى دفعتهم إلى هذه الأخطاء .

«وقد كان يلحن[٢] فى أشياء من شعره ، لا أراه الا على حجة من الشعر المتقدم ، وعلى علة بينه من علل النحو .

منها قوله :

فليـــت مـــا أنـــت راط مـــن الثـــرى لـــى رمـــا

---

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٤٦ .
(٢) يعنى النواسى .

أما تركه الهمز فى (واطىء) فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز ، وأن قريشا تتركه وتبدل منه ، وأما نصبه «رمسا» فعلى التمييز ، والبغداديون يسمونه (التفسير» ألا تراه قال (فليت ما انت واط من الثرى لى) فتم الكلام ، وصار الجواب «ليت» فى (لى) ثم بين من أى وجه يكون ذلك ، فقال (رمسا) أى قبرا ، كما تقول فى الكلام : ليت ثوبك هذا لى ، ثم تقول : إزارا لأن جواب (ليت) صافى فى قولك (لى) وصار الازار تمييزا »[١] .

وانا زعيم ، بأن العلماء قد ظلموا أبا نواس فى تقدهم له ، وحقيقة أن الرجل وغيرة من الشعراء وبخاصة الذين كانوا من الموالى ، أتوا فى قصائدهم ببعض الألفاظ الدخيلة ، لكن هذه الألفاظ كانت قليلة ونادرة . ويذكر ابن المعتز أن النواسى قرأ الكثير من دواوين الجاهليين وقصائد المخضرمين ـ والأمويين[٢] .

ولم يكن النراسى وحده الذى حذق اللغة العربية الفصحى وأكب على دواوين الشعراء القدامى ، وإنما سبقه إلى هذا بشار بن برد زعيم المحدثين .

وجاز لنا القول ، أن علماء اللغة قد دفعوا الشعراء إلى اتباع لغة جديدة فى الشعر ، مزجوا فيها بين لغة القدماء والمحدثين وأطلق على أسلوبهم أسلوب المولدين .

وكان أسلوب المولدين يجمع بين جزالة القديم المتمثل فى لغة البدو ، والاسلوب الحديث الذى كان نتاج الحضارات الوافدة وتأثر الذوق الشعرى بها ، ولقد كانت حياة العصر العباسى تختلف عن حياة الجاهليين ، وكما ذكرنا فى حديثنا عن الوحدة فى القصيدة الجاهلية أن الشاعر الجاهلى اتخذ من قصيدته وسيلة لتجسيد حياته وبيئته ، فكان البكاء على الأطلال ، وذكرى

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٨١٨ الجزء الثانى .
(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠١ .

الحبيبة ، ووصف الناقة والفخر والمدح أغراضا تمثل الجو الذى عاشه الشاعر الجاهلى بل حياة البدو بعامة[١] .

وكثير أن نلزم الشاعر العباسى بأن يسير على هدى القدماء من الجاهليين ، ويجعل موضوعاتهم أمثلة له ، وكيف له محاكاة القديم وقد تغيرت حياته وبيئته . وهل بمقدور الشاعر العباسى الذى كان يسكن القصور أن يبكى الديار والأطلال ، وهل تصلح هذه الأطلال موضوعا لقصيدته .

ان الأديب ابن البيئة ، بل الابن الشرعى لها ، لهذا ، كان من حق المحدثين وقد تأثروا بهذه الأساليب الحضارية أن يجددوا فى أشعارهم ، ويتجهوا إلى فنون أخرى لم يحس الشاعر الجاهلى بها مثل افتتاحيات القصائد بالخمر والغزل بالغلمان .

ويعد العصر العباسى - وبخاصة فى عهدى الرشيد والمأمون - العصر الذهبى للترجمة ، وكانت من اليونانية والفارسية إلى العربية .

ومن التراث اليونانى النقدى الفلسفى الذى ترجم إلى العربية كتاب الخطابة لأرسطو الذى ترجم فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وكتاب «فن الشعر» لذات الفيلسوف الذى ترجمه متى بن يونس قبيل عام ٣٢٠ للهجرة . من السريانية إلى العربية .

ولشكرى عياد رأى فى القسم الثانى من ترجمته «فن الشعر» الخاص بالمأساة .

«أما القسم الثانى الخاص بالتراجيديا ، فهو شديد الاضطراب ، وإن فهمت بعض أفكاره بشىء من الوضوح النسبى . وتعريف التراجيديا نفسه أو (صناعة المديح) كما يسميها متى تعريف مشبع بسوء الفهم ، لا تظهر فيه الناحية الخاصة بالتراجيديا وهى تمثل الفعل . أما أجزاء التراجيديا فى

(١) راجع كتابنا التجربة الشعرية فى القصيدة العربية القديمة .

تحليل أرسطو فيبعضها يفهم فهما نسبيا وبعضها لا يفهم على الاطلاق . فالجزء الأول - وهو أهم الأجزاء ، قصة الحوادث أو ترتيب الأفعال ، وهذا يسميه متى الخرافة ، ولكنه يعبر عن (ترتيب الأفعال) بعبارة (تقويم الأمور) فيسبغ على شرح أرسطو لعنصر (القصة) شيئاً غير قليل من الغموض - ويسمى متى العنصر الثانى فى التراجيديا - عنصر (الخلق) أو (الشخصية) فى تعبير المحدثين (العادة) ، والعنصر الثالث عنصر (الفكر) الذى يعتمد عليه فى الحوار (الاعتقاد) .

وهذه العناصر الثلاثة التى تؤلف عند أرسطو موضوع المحاكاة فى التراجيديا ، تفهم فهما مقاربا فى ترجمة (متى) ، وكذلك يمكن أن يفهم العنصر الرابع وهو عنصر العبارة أو (المقولة) ، وإن كان (متى) قد أساء ما استطاع فى ترجمة تعريف أرسطو لها ، والعنصر الخامس (الغناء) يسميه (متى) (صنعة الصوت) وهى ترجمة مفهومة فى زمنه . أما العنصر السادس والأخير فهو مالا يفهمه (متى) على الإطلاق ولا يمكن أن يفهمه القارئ لترجمته الحرفية ، وهو عنصر (المنظر) التمثيلى . (ومتى) يضطرب فى ترجمة هذه الكلمة اضطرابا شديدا فهى عنده مرة (النظر) ومرة (المنظر) ، ومرة (الوجه) ، وما ذلك إلا لأن معناها الاصطلاحى مجهول عنده تماما»[1] .

ونضيف بأن ذات الاضطراب وقع فيه (متى) عند ترجمته اصطلاح الكوميديا (الملهاة) فيسميها «صناعة الهجاء» .

ونقول ، إن كتاب «فن الشعر» لأرسطو قد استقى الفيلسوف اليونانى مادته الأدبية والفنية من شعر غنائى ومسرحى وملحمى من أعمال شعراء الكلاسيكية اليونانية قبل الميلاد بعدة قرون .

---

(١) ارسطو طاليس : فى الشعر - ترجمة وتحقيق شكرى عياد - ١٨٨ .

ولما كان التراث المسرحى اليونانى القديم يقوم على تعدد الآلهة والأرباب وتمجيد الأبطال ، فقد جعله أصحاب الدين المسيحى حبيس كنائس بيزنطية عقب سقوط روما فى القرن السادس الميلادى ، فلم تمسسه يد إنسان ، ولم يقربه بشر ، وظل بعيدا عن الأيدى فى منأى عن الفكر الإنسانى وحركة الترجمة . ولهذا تخبط(متى) فى ترجمة المصطلحات الخاصة بالمأساة والملهاة ومرجع هذا الاضطراب . ان التراث المسرحى اليونانى لم يكن بين أيدى المترجمين العرب فى العصر العباسى .

أعنى أنه يجب علينا ألا نقسو على الرجل فى هذا الاضطراب ، وعذره أن المسرحيات الاغريقية التى اغترف منها أرسطو مادته النقدية الفلسفية كانت حبيسة كنائس بيزنطية من القرن السادس الميلادى حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى «عصر البعث فى أوروبا» .

لقد ظن الرجل (متى) أن الفيلسوف اليونانى يتحدث عن الشعر الغنائى بموضوعاته ، فترجم التراجيديا (المأساة) بمعنى (صناعة المديح) والكوميديا (الملهاة) بمعنى (صناعة الهجاء) .

وبينما نجد متى بن يونس وقد قام بترجمة جميع أجزاء كتاب (فن الشعر) لأرسطو ، رأينا (الكندى) ، (الفارابى) ، (ابن سينا) و (ابن رشد) من الفلاسفة المسلمين فى العصر العباسى يتناولون هذا الكتاب بالتلخيص ، ونظن أنهم قد اتخذوا من ترجمة متى مرجعا لهم فى ملخصاتهم.

وهاجم النقاد الأوروبيون تلخيص ابن رشد ونقدوه نقدا عنيفا .

«... وتلخيص ابن رشد لكتاب الشعر وهو جزء من تلخيصه للمنطق - ترجم إلى اللاتينية مرتين ترجمة (ماننينوس) عن ترجمة (تدرسى) العبرية ثم ترجمة (هرمانوس المانوس) عن الأصل العربى . ولذلك لا نعجب إذا نال

هذا التلخيص من عنف النقاد الأوروبيين - على اختلاف ميادين بحثهم - اكثر مما نال ترجمة (متى) التى لم يعرفها إلا عدد قليل من الدارسين . (فرينان) و (دى بور) و (بايو وتر) . كل أولئك نسبوا إلى ابن رشد الخلط فى أداء معانى أرسطو والعجز عن فهمها »[1] .

ومع إيماننا بأن تلخيص ابن رشد يشوبه الاضطراب وبخاصة عند الحديث عن المأساة «التراجيديا» ، وهو اضطراب نجده فى جميع ملخصات الفلاسفة المسلمين ومن قبلهم (متى) . فإننا لا نقر النقاد الأوروبيين فى هجومهم العنيف على الفيلسوف الإسلامى .

أقول ، لقد ولد ابن رشد فى عام ١١٢٠ ، وتوفى فى عام ٥٩٥ للهجرة ، وهذا يعنى أن الرجل لم يعش عصر الاحياء فى أوروبا ، وأنه توفى قبل عصر بعث التراث المسرحى اليونانى القديم الذى كان قائما على الوثنية بحوالى قرنين أو أكثر .

لقد كان لابن رشد وغيره من الفلاسفة المسلمين عذرهم فى هذا الاضطراب - وكما أشرنا - من قبل لو أن هذا الانتاج الكلاسيكى الاغريقى كان بين أيديهم ماتخبطوا فى ترجمته وما اضطربوا فى تعريب مصطلحاته الفنية .

وأزعم ، أن هذين العاملين ونعنى بهما ، هذا التراث المسرحى الثرى الذى كان حبيس كنائس بيزنطة ، والاضطراب فى ترجمة المصطلحات الفنية وبخاصة الدرامية منها كانا من أهم الأسباب التى جعلت العرب لم يعرفوا فن المسرح فى العصر العباسى .

وأقول ، إنه على الرغم من هذا الاضطراب ، فقد أثرت ترجمة متى وملخصات الفلاسفة المسلمين فى النقد العربى فى ذلك العصر ، ولمسنا أثرا

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥ .

من فلسفة أرسطو فى تراثنا النقدى وفكر نقاد العصر والبلاغيين . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر . قدامه بن جعفر ، وأبو هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم .

ومن أبرز نقاد هذين القرنين ، ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز . وقد ولد محمد بن سلام الجمحى بالبصرة سنة ١٣٩ للهجرة بعد سنوات قليلة من نشأة الدولة العباسية التى بدأت فى السنة الثانية والثلاثين بعد المائة . وتوفى فى السنة الحادية والثلاثين بعد المائتين ، ومع وفاته ، ينتهى العصر الذهبى لهذه الدولة ، ففى هذه الفترة بلغت الدولة الاسلامية القمة فى الحضارة . فيكون الرجل قد عاش لعمر جاوز التسعين .

يقول القفطى :

«أخبرنى أحمد بن محمد احمد بن يعقوب الكاتب ، حدثنى جدى محمد بن عبدالله بن الفضل بن قفرجل . حدثنا محمد بن يحيى بن النديم ، حدثنا الحسينى بن فهم قال :

ـ قدم علينا محمد بن سلام سنة ٢٢٢هـ . فاعتل علة شديدة ، فما تخلف عنه أحد ، وأهدى الأجلاء أطباءهم ، وكان مانسويه ممن أهدى اليه ، فلما جسه ونظر اليه ، قال :

ـ مارأى من العلة كما أرى من الجزع .

فقال :

ـ والله ماذاك الحرص على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة ، ولكن الإنسان فى غفلة حتى يوقظ بعلة ، ولو وقفت بعرفات وقفة وزرت قبر الرسول زورة وقضيت أشياء فى نفسى لرأيت ما اشتد على من هذا قد سهـــل .

فقال له ماسويه :

- فلا تجزع ، فقد رأيت فى عرقك من الحرارة الغريزية وقوتها ، أما ان سلمك الله من العوارض ، بلغك عشر سنين أخرى .

فقال الحسن بن فهم :

- نوافق كلامه قدرا ، فعاش محمد عشر سنين بعد ذلك ومات سنة ٢٣٢هـ»[١] .

تتلمذ محمد على والده سلام الجمحى ، وقرر الأب أن يجعل من ابنه عالما أو فقيها كالعلماء الذين كانوا يلقون الدروس فى المساجد ، وكان أخوه عبد الرحمن من رواة الحديث .

وقرأ محمد بن سلام على فحول شيوخ الأدب واللغة فى عصره ، فدرس على عبد الملك الأصمعى وخلف الأحمر وأبو عبيده معمر بن المثنى والمفضل الضبى ، ويونس بن حبيب وغيرهم .

ويذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست ثبتا بالكتب التى ألفها ومنها الفاضل فى ملح الأخبار والأشعار وكتاب بيوتات العرب ، وطبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء الاسلاميين ، والحلاب ، وغريب القرآن[٢] .

ويزعم النقاد أن ابن سلام أول ناقد متخصص فى القرن الثالث للهجرة ، وكتابة «طبقات الشعراء» أول مصدر نقدى وصل إلينا حتى الآن ، فقد كانت الأعمال النقدية قبله لا تتجاوز الجمل أو الفقرات نراها مبعثرة فى المصادر الأدبية . ونرى أن الكتب التى ألفها ابن سلام وجمعت أسماء مختلفة من طبقات الشعراء الجاهليين ، وطبقات الشعراء الاسلاميين ، وطبقات الشعراء ، هى فى الحقيقة لمصدر واحد هو «طبقات الشعراء» ، حيث عرض هذا الكتاب الأخير للطبقات من الجاهلين والاسلاميين .

---

(١) القفطى : انباه الرواة على انباه النحاة ص ١٤٥ الجزء الثالث .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٥٨ .

وقام محمد شاكر بتحقيق الكتاب وجعله تحت عنوان «طبقات فحول الشعراء» وبرر العنوان للأسباب الآتية : -

«أولا : أن اسم (طبقات الشعراء) لا يطابق موضوع كتاب ابن سلام كل المطابقة ، فانه لم يستوف فيه ذكر (الشعراء) بل اختار منهم عددا معلوما والذى اغفله من كبار الشعراء أضعاف أضعاف ماذكر ، واذن فأسم (طبقات الشعراء) ثوب فضفاض لا يطابق مافى كتابه .

«ثانيها : أنى رأيت ابن سلام قد أوجد اللفظ المطابق لمعنى ماأراده كتابه فهو يقول : (فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا) وهذه كلمة دالة ، وهى مطابقة لما فعل ، فانه وازن بين الشعراء ، (فألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه) ونزلهم منازلهم ، ثم اقتصر (بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم وإلى رهط أربعة ، على أنهم أشعر العرب طبقة) فرأيت أن تسمية الكتاب باسم (طبقات فحول الشعراء) أولى وأدل من تسميته (طبقات الشعراء .

«ثالثها : انى رأيت ابا الفرج الاصفهانى قد أوجد هذه الكلمة فى موضوعين من كتابه ، أحدهما فى ترجمة المخبل السعدى إذ يقول : (وذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء) والآخر فى ترجمة عبيد بن الأبرص إذ يقول (وجعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول الشعراء) . فهاتان وكلمة ابن سلام ، تدل جميعا على كتاب ابن سلام دلالة أحسن من دلالة (طبقات الشعراء) .

«وآخرها : انى رأيت على نسختى التى نقلتها بيدى هذا العنوان (طبقات فحول الشعراء) فلست أدرى بعد هذا الزمن الطويل ، أكانت هذه الكلمة فى الأم العتيقة ، ثم نقلتها كما هى ، أم ترانى كتبتها من عندى ؟ وأنا أرجح الأولى ، لأنى كنت يومئذ صغيرا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى ، ولأنى كنت يومئذ فى أول الطلب وأجهل من أنظر نظرا صحيحا فى مثل هذا الأمر الدقيق ، المحتاج إلى التمييز والبصر .

«فمن أجل هذا ، لم أتردد ، فى جعل اسم الكتاب (طبقات فحول الشعراء) فان كان هو الاسم القديم الذى سمى ابن سلام كتابه ، فذاك ، والا فانى أراه بعد ذلك كله أولى بأن يكون اسما للكتاب ، دون الاسم الذى عرف به ، واستغفر الله ان كنت قد أسأت»[١] .

ونقول ، إنه برغم وجاهة الأسباب التى ساقها محمود شاكر ليبرر بها وجهة نظره ، وبرغم أن هذه الأسباب قد تصل إلى حد الاقناع .

أقول برغم هذا كله ، فاننا نختلف معه ، فالثابت فى المصادر التى تحدثت عن مؤلفات ابن سلام أنها لم تذكر كلمة (فحول) ، فهناك كتاب طبقات الشعراء الجاهليين ، وكتاب طبقات الشعراء الاسلاميين ، ولكننا لم نقرأ عن كتاب طبقات فحول الشعراء للجاهليين ، أو طبقات فحول الشعراء للاسلاميين . وان كان ذلك لم يقلل من الجهد الذى بذله الرجل فى تحقيق الكتاب ، ومايهمنا بالدرجة الأولى القضايا والموضوعات التى تناولها هذا المصدر النقدى .

وينقسم الكتاب إلى قسمين ، يشمل القسم الأول المقدمة وتحدث فيها ابن سلام عن المشكلات الآتية :

أولا : مفهوم الشعر ، وقد جعل ابن سلام الشعر صناعة لا يحسنها إلا من كانوا على دراية واسعة بها ، فشأن الشعر عنده كشأن سائر الصناعات .

«وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ماتثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان . من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا وسم ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها ، وكذلك يعرف الرقيق ، فتوصف الجارية

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٣٤ - ٣٥ المقدمة .

فيقال : ناصعة اللون ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، طريفة اللسان واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار ، وبمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة .

«ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء : انه لندى الصوت والحلق ، طل الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارسة لتعدى على العلم به فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به ...»[١] .

وأنا زعيم بأن ابن سلام قد ذكر فى هذا النص الشروط التى يجب أن تتوفر فى الناقد ، أو بالأحرى جسد عوامل ثقافة الناقد . ويتمثل العامل الأول عنده فى ذوق الناقد . فالكثير من أحكام الناقد تعتمد على ذوقه الشخصى وعليه ان يقرأ كثيرا للشعراء . ويتجسد العامل الثانى فى الدربة ، فهذا المران يهذب ذوقه ويربيه ، ويجدد له مواقع الجمال فى الشعر .

ومن القضايا الأخرى التى عرض لها ابن سلام فى كتابه مشكلة النحل فى الشعر الجاهلى ، وفى هذا الجزء تحدث عن الأسباب التى أدت إلى نحل الشعر الجاهلى وبعضها يرجع إلى من هلك من الشعراء بالموت أو القتل أثناء الحروب ، وبذلك ضاع الكثير من الشعر أو قل غاب عن الشعراء والرواة[٢] . سنتحدث بالتفصيل عن هذه القضية فى الكتاب الثانى من هذه البحوث .

وفى القسم الثانى الذى يمثل عامود الكتاب ، راح ابن سلام يصنف عمالقة الشعر من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين على نسق معين اتخذه منهجا له وعلى أساس تقسيم الشعراء إلى مراتب .

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٦ ـ ٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢ ـ ٤٠ .

ويكشف لنا ابن سلام عن منهجه فى تصنيف الكتاب إلى طبقات فيقول :

«ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين ، الذين كانوا فى الجاهلية وأدركوا الاسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء ، وقد اختلف الناس والرواة فيهم ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنفاذ فى كلام العرب ، والعلم بالعربية ، اذا اختلفت الرواة ، فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولا يقنع الناس مع ذلك إلا الرواية عمن تقدم .

فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط لكل طبقة ، متكافئين متعادلين»[1] .

وصنف ابن سلام شعراء الجاهلية عشر طبقات ، فى كل طبقة أربعة شعراء ، وبذلك اختار من الشعراء الجاهليين أربعين شاعرا ، وكذلك جعل شعراء الاسلام فى عشر طبقات ، فى كل طبقة اربعة شعراء وعلى نحو مافعل مع شعراء العصر الجاهلى يكون قد اختار أربعين شاعرا من الاسلاميين . بينما صنف شعراء الرثاء فى طبقة واحدة وجعلهم أربعة شعراء ، وجعل لشعراء القرى من المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين نصيبا فى كتابه ، واختار منهم اثنين وعشرين شاعرا ، وخص لشعراء اليهود ثمانية .

ورتب ابن سلام الشعراء داخل الطبقة الواحدة وفقا لأهميتهم ، وكان يبدأ بالحديث عن نسب كل منهم ، ويعرض ماقاله العلماء فيهم ، وما كان من تفضيل شاعر على آخر .وفى بعض الأحيان نراه يذكر تفسيرات الكلمات الغريبة التى تأتى فى قصائد الشعراء وآراء علماء اللغة فيها .وكانت له آراء

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٢٣ ـ ٢٤ المقدمة .

خاصة فى مزاعم هؤلاء اللغويين . أعنى انه كان يختلف معهم أحيانا ، ويتفق معهم أحيانا أخرى .

وتمثلت مقاييس اختياره شعراء كل مرتبة فى ثلاثة أسباب ، جودة الشعر ووفرته وتنوع الأغراض التى نظم فيها الشاعر ، وإذا تساوى شاعران فى الاجادة ، ومارووى عن أحدهما أقل من الآخر ، وضع صاحب الكثرة فى طبقة أرفع . أما اذا اتفق شاعران فى الكثرة وتنوع الأغراض ، كان مقياس المفاضلة بينهما جودة الشعر .

ومع ذلك فاننا نرى الرجل قد وقع فى بعض الأخطاء ، ومن الغريب أن يصنف الشعراء بهذا التقسيم ، لقد جعل الشعراء الجاهليين فى عشر طبقات وفى كل طبقة أربعة شعراء ، واتخذ نفس التصنيف مع الشعراء الاسلاميين ، وهو تصنيف يذكرنا بعلم الاحصاء . والعجيب أنه لم يذكر الأسباب التى دفعته إلى هذا ، وكثيرا ما أوقعه هذا التصنيف الاحصائى فى خطأ .

ومن الغريب ان يتخذ بن سلام من كثرة الأشعار مقياسا فى قواعده للمفاضلة بين الشعراء ، وكان حريا به أن يتخذ الجودة مقياسا للمفاضلة ، وقد أوقعه هذا فى خطأ حين أخر شعراء أجادوا فى قصائدهم ، ودفعه إلى هذا التأخير قلة ماروى من شعرهم .

يفعل ابن سلام هذا ، وهو الذى تحدث فى مقدمة كتابه عن قضية الانتحال فى الشعر القديم ويعلم أن الكثير من الشعر ضاع بسبب الموت أو القتل .

وعاب عليه محمد مندور واتهمه بالسطحية فى نقده .

«ثم اننا نلاحظ انه يورد مايختاره للشعراء المختلفين أو يورد مطالعه ، ولكنه لا يحلله ولا ينقده ولا يظهر مافيه من جمال أو قبح ، وان حكم على بعض القصائد أو بعض الشعراء فأحكامه فى الغالب هى الاحكام النقدية التقليدية التى كانت الألسن تتداولها عن السابقين (حسان بن ثابت يقول :

أشعر الناس حيا هذيل ، والفرزدق يقول فى النابغة الجعدى : مثله مثل صاحب الخلقان ترى عنده ثوب قصب وثوب خز وإلى جانبه سمل كساء ، وأبو عمر بن العلاء يقول فى خداش بن زهير بن ربيعة : هو أشعر فى قريحة الشعر من لبيد وأبى الناس تقدمه لبيد . وهو ان أورد حكما لنفسه كقوله عن أصحاب المراثى (والمقدم عندنا منهم بن نويره) أو (ومن الناس من يفضل قيس ابن الخطيم على حسان ولا أقول ذلك) لم يسبب أحكامه بتحليل لنص أو ذكر لصفات مميزة . وان أورد خصائص جاءت عامة غامضة غير دقيقة كقوله عن أبى ذؤيب الهذلى انه (شاعر فحل لا غميزة فيه ولا وهن) وعن عبيد بن الحسحاس انه (حلو الشعر وقيق حواشى الكلام) وعن البعيث انه (فاخر الكلام حر اللفظ) وأمثال ذلك مما لا تحديد فيه ولا تفصيل .

«واذن فابن سلام لم يتقدم بالنقد الفنى إلى الامام شيئا كبيرا وإن كان قد صدر فى تحقيقه للنصوص عن مذهب صحيح ، وحاول أن يدخل فى تاريخ الأدب العربى اتجاها نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على أحكام فنية . ولهذا نستطيع أن نظل عند ملاحظتينا السابقتين من عدم صدور النقد ، كفن لدراسة النصوص وتمييز الاساليب ، عن منهج مستقيم وروح علمية فى تعليل الأحكام وذلك حتى أواخر القرن الثالث ، وانما أصبح النقد منهجيا فى القرن الرابع فقط عند الامدى وعبد العزيز الجرجانى»[1] .

وفى الطبقات راح ابن سلام يوازن بين شاعر وآخر ، ولم يكتف بهذه الموازنة بل نراه يفضل أحدهما ، وفى بعض الأحيان كان يوازن بين الأبيات المفردة والقصائد .

---

(١) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ص ٢١ ـ ٢٢ .

ومن الظلم للرجل أن نجعله يتقدم عصره فنطلب منه مقاييس نقدية لا تتوفر إلا فى النقد الأدبى الحديث ، ومن الظلم له أيضا أن نطالبه بطفرات فى هذا الفن .

ويكفى ابن سلام مابذله من جهد فى سبيل تصنيف فنون النقد عند من سبقوه ، وما وضعه من اضافات تكشف عن ذوقه الفنى واحساسه الشعرى ، وهى اضافات نزعم ان لها قيمتها فى مجال النقد .

ان العالم لا يؤمن بالطفرة ، ومالم يكن «طبقات الشعراء» لابن سلام ما كانت الكتب النقدية التى ظهرت بعده ، فالكتاب يمثل خطوة على الطريق .

إننا نظلم الرجل إذا حكمنا عليه بالمقاييس النقدية التى يراها محمد مندور ، وكثيرا أن يطلب مندور منه ان يتقدم بالنقد الفنى إلى مايشبه الطفرات . فيكون أقرب إلى نقاد العصر الحديث . بل إننا نرى ابن سلام قد سبق عصر والعصور التالية ، فقد تحدث عن آثار الزمان والمكان والبيئة فى النقد ، ولهذا التصنيف النقدى أثاره عند «سنت بيف» و «هيبوليت تين» فى القرن التاسع عشر حيث وجها النقد وجهة اعتبرها علماء النقد جديدة ، فقد صنفا الأدباء وانتاجهم فى ثلاثة أسباب :

أولا : الجنسية التى ينتمى إليها الكاتب أو الشاعر .

ثانيا : العصر الذى كان يحيا فيه الأديب .

ثالثا : البيئة التى خرج منها الشاعر أو الكاتب .

مانظن أننا نغالى اذا قلنا إنه لابن سلام قصب السبق فى هذا التصنيف الذى ذكره الناقدان الأوربيان فى القرن التاسع عشر .

كذلك ، فقد كان للرجل بصماته النقدية فى العصور الأدبية اللاحقة حتى العصر الحديث ، وتأثر بمنهجه النقدى ـ وبخاصة قضية نحل الشعر ـ كل من المستشرق «مرجوليوث» ومصطفى صادق الرافعى وطه حسين .

وأما أبو عثمان عمرو الجاحظ فقد ولد عام ١٥٩هـ وتوفى عام ٢٥٥هـ بالبصرة التى كانت فى ذلك الوقت من أكبر مراكز الاشعاع الأدبى واللغوى والنقدى فى الدولة العباسية . وكانت طفولته جامدة ، فقد فقد والده وهو مازال صغيرا فعانى شظف العيش . والتحق فى صباه بالكتاب ، وفيه ظهرت بوادر عبقريته ونبوغه ، لكن قسوة الحياة ، جعلته يعمل بائعا للخبز والسمك ليجد القوت له ولوالدته . ومع ذلك لم تشغله هذه المهنة عن طلب العلم والمعرفة والتردد على الأسواق الأدبية . وفى هذه الأسواق والمساجد كان الجاحظ يستمع ويناقش وينقد الشعراء .

كتب الجاحظ فى الكثير من الوان المعارف العلوم ، وتجاوزت هذه المؤلفات الثلاثمائة بين كتاب ورسالة ، وأشهرها «البخلاء» و «الحيوان» و «البيان والتبيين» ، وقد الف هذا الكتاب الأخير فى أخريات أيامه بعد أن تقدم به العمر ، وتحدث فيه عن البيان والبلاغة والخطابة .

والحقيقة ان هذه الموضوعات من بيان وبلاغه وخطابه كانت تدور فى فلك قضية واحدة ويعنى بها الكلام الجيد .

يقول عن البيان :

«والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

«ثم اعلم ـ حفظك الله ـ أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة .

«وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد[١] ، ثم الخط ، ثم الحالة التى تسمى نصبة ، والنصبة هى الحال الدالة ، التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، وعما يكون منها لغوا بهرجا ، وساقطا مطرحا»[٢] .

فى هذا النص ، نرى الجاحظ يستخدم ألفاظ البلاغة والفصاحة والبيان مترادفات ، ترمى إلى معنى واحد ، ويبدو أن هذه المعانى قد أحدثت خلطا عنده ، ودليلنا على هذا أنه تارة يفسر كلمة بيان بالسعى ، وتارة يشرحها بمعنى سلامة النطق ، وأحيانا يرى أنها تعنى الفهم والإفهام ، وأخيرا يفسرها بمعنى البلاغة .

وفى النص يفصل الجاحظ بين اللفظ والمعنى ، ويزعم أن للألفاظ جهابذة يوجهون اهتمامهم إليها . وأن للمعانى نقادا يمكن العودة إليهم فيها . وهكذا ، جعل الرجل الجودة فى النثر والشعر تتمثل فى هذا الحد الفاصل بين المعنى واللفظ .

والغريب أن نرى الجاحظ فى حديثه عن البيان يلصق بمشكلة الخلق الأدبى بعض السمات ، وهى أبعد ماتكون عنها ، فيزعم ظهور المعنى قبل كتابته ، لكأنما يذكرنا بالمثل الذى يقول (المعنى فى بطن الشاعر) ، ويتكلم عن المعانى الخفية فى صدور الناس ، أو التى تدور فى أذهانهم ، ولم تخرج إلى النور والتعبير عنها بالتدوين .

---

(١) ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ص ٧٦ ـ الجزء الأول .

إن الرجل بذلك يتحدث عن المعنى الخيالى الذى لا وجود له فى الواقع ، ومن من النقاد - مهما كان ذكيا وعبقريا - يعى المعانى التى تدور فى خيال الفنانين قبل تسجيلها فى لوحاتهم أو تلك التى فى أذهان الأدباء قبل التعبير عنها فى قصيدة أو قصة أو مقال .

كثير أن يتحدث الجاحظ عن هذه المعانى المستورة الخفية ، والمحجوبة المكنونة ، بل المعدومة وقد افتقدت التعبير عنها بالكتابة .

ويقول فى حديثه عن الخطابة :

«وليس ، حفظك الله ، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة ، بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة ، والناس لا يعيرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ، يؤنبون العى ، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليها الذم ، وترادف عليهما التأنيب ، ومماتنة[١] العى الحصر للبليغ المصقع ، فى سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق ، واخذهما ألوم من صاحبه ، والألسنة إليه أسرع .

وليس اللجلاج والتمتام ، والألثغ والفأفاء ، وذو الحبسة والحكلة[٢] والرتة[٣] ، وذو اللفف[٤] والعجلة ، فى سبيل الحصر فى خطبته ، والعى فى مناضلة خصومه . كما أن سبيل المفحم عند الشعراء ، والبكئ عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار ، والخطل المكثار .

---

(١) ماتن فلان فلانا ، بمعنى عارضه فى جدل.
(٢) الحكلة : شبه العجمة ، لا يبين صاحبها الكلام .
(٣) الرتة : عجلة فى الكلام ، وقلة أناة .
(٤) الف : يعنى بطىء الكلام .

«ثم اعلم - أبقاك الله - أن صاحب التشديق والتقعير[١] والتعقيب[٢] من الخطباء والبلغاء ، مع سماحة التكلف ، وشنعة التزيد ، أعذر من عيي يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وبيانا يمازجه التزيد ، إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام ، أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ، ومن تشادق الأعرابي القح . وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ ، وفي التحبير والارتجال ، أنه البحر الذي لا ينزح ، والغمر الذي لا يسبر ، أيسر من انتحال الحصر المنخوب[٣] أنه في مسلاخ[٤] التام الموفر ، والجامع المحكك[٥] . وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال : (إياي والتشادق) وقال : (أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون)[٦] ، وقال : (من بدا جفا) ، وعاب الفدادين[٧] والمتزيدين ، في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ، ورحب الغلاصم وهدل الشفاه ، وأعلمنا أن ذلك في أهل الوبر ، وفي أهل المدر أقل - فإذا عاب المدري[٨] بأكثر مما عاب به الوبري[٩] ، فما ظنك بالمولد القروي والمتكلف البلدي . فالحصر المتكلف والعيي المتزيد ، ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر ، لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى ، فمن أسوأ حالا - أبقاك الله - ممن يكون ألوم من المتشدقين ، ومن الثرثارين المتفيهقين ، وممن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصا ، وجعل النهي عن مذهبه مفسرا ، وذكر مقته له ، وبغضه إياه»[١٠] .

---

(١) التقعير : أن يتكلم بأقصى قعر فمه .

(٢) التعقيب : مثل التقعير .

(٣) المنخوب : الجبان .

(٤) المسلاخ : الجلد .

(٥) المحكك : الذي جرب الأمور .

(٦) المتفيهق : الذي يتوسع في الكلام .

(٧) الفداد : الجافي الصوت والكلام .

(٨) المدري : الحضري .

(٩) الوبري : البدوي .

(١٠) الجاحظ : البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - ص ١٢-١٤ - الجزء الأول.

ويقول أيضا :

«وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجبة ولا القميص ولا الرداء . والذى لابد منه العمة والخصرة . وربما قام فيهم وعليه إزراره قد خالف بين طرفيه . وربما قام فيهم وعليه عمامته ، وفى يده مخصرته ، وربما كانت قضيبا ، وربما كانت عصا ، وربما كانت قناة . وفى القنا ماهو أغلظ من الساق ، وفيها ماهو أدق من الخنصر . وقد تكون محككة الكعوب مثقفة من الاعوجاج ، قليلة الأبن[1] . وربما كان العود نبعا ، وربما كان من شوحط ، وربما كان من آبنوس ، ومن غرائب الخشب ومن كرائم العيدان ، ومن تلك الملس المصفاة ، وربما كانت لب غصن كريم ! فإن للعيدان جواهر كجواهر الرجال ، ولولا ذلك لما كانت فى خزائن الخلفاء والملوك . ومنها مالا تقربه الأرضة ولا تؤثر فيه القوادح»[2] .

ولقد أفاض الجاحظ فى حديثه عن الخطابة ، وثقافة الخطيب وأدواته ، فتكلم عن الجهر بالكلام ، والصوت الرفيع ، والدمامة وتأثيرها فى الخطيب ، كما تحدث عن الحروف ومخارجها ، والنطق السليم ، وعن الأسنان ونقصها وسقوطها ، وعن الإشارة وإستخدامها وأثر العصا في مقومات الخطيب كما تحدث عن حالات الخطابة ، ومعانى كل حالة ، ثم تكلم عن المستمعين وأقدارهم .

ونرى أن الرجل فى حديثه عن الخطابة ، قد تأثر تأثيرا مباشرا بكتاب أرسطو «الخطابة» وحديث الناقد العباسى عن هذا اللون الأدبى ماهو إلا صورة مستوحاة من صنيع المفكر اليونانى القديم . وللحقيقة نقول بأن الفكر اليونانى قد ترك بصماته على مؤلفات الجاحظ ، وشأن الثقافة اليونانية هنا كشأن الفكر الفارسى الذى أثر فى انتاجه الأدبى [illegible] .

(١) الابن : جمع أبنة [illegible] ، وهى العقدة .
(٢) الجاحظ : ال[illegible]ان والتبيين ـ تحقيق عبد الكلام هارون ـ ص ٩٢ ـ الجزء الثالث .

وعن البلاغة يقول الجاحظ :

«خبرنى أبو الزبير كاتب محمد بن حسان ، وحدثنى محمد بن أبان ولا أدرى كاتب من كان - قالا :

- قيل للفارسى : ما البلاغة ؟

- قال : معرفة الفصل من الوصل .

- وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟

- قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام .

- وقيل للرومى : ما البلاغة ؟

- قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والفزارة يوم الاطالة .

- وقيل للهندى : ما البلاغة ؟

- قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة . وحسن الإشارة .

- وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .

- ثم قال : ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، أن تدع الافصاح بها إلى الكناية عنها ، اذا كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر . -

قال : وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق[1] بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .

- ثم قال : ،وزين ذلك كله ، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية ، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال .

---

(١) الخرق : الحيرة .

«وخالف عليه سهل بن هارون فى ذلك ، وكان سهل فى نفسه عتيق الوجه ، حسن الاشارة : بعيدا عن القدامة ، معتدل القامة ، مقبول الصورة يقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل التكشف ، فلم يمنعه ذلك أن يقول ماهو الحق عنده وإنّ أدخل ذلك فى حالة النقص .

- قال سهل بن هارون : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا ، ولباسا نبيلا ، وذا حسب شريفا ، وكان الآخر قليلا قميئا ، وباذ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبة به ، ولصار التعجب منه سببا للعجب به ، ولصار الإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على مالم يكونوا يحتسبونه ، وظهر منه خلال ماقدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشىء من غيره معدته أغرب وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به أكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى مثل الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم ، وعلى ذلك زهد الجيران فى عالمهم ، والأصحاب فى الفائدة من صاحبهم وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعا وأكثر فى وجوه العلم تصرفا ، وأخف مؤونة وأكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجى على العرق والطارف على التليد .

- وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغا والسيد خطيبا ، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلا يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل ، والاكبار والتبجيل ، على قد حالهما فى نفسه ، وموقعهما من قلبه ، وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما ، والخوف من أن يكون تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ، ما ليس عندهما ، حتى يفرط فى الاشفاق ، ويسرف فى التهمة . فالأول يزيد فى حقه للذى له فى نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعا فى أمره . فإذا كان الحب يعمى عن المساوئ فالبعض أيضاً يعمى عن المحاسن . وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ، ومحصول حدود لطائف الأمور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الاخلاط عليم ، وإلا القوى المنة ، الوثيق العقدة ، والذى لا يميل مع مايستميل الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر»[1] .

وفى كلامه عن البلاغة التى تحدث عنها فى مواضع متفرقة من الكتاب ، نراه يتكلم عن روعة الاستهلال ، وجودة التقسيم فى القصائد الغنائية والخطب ، كما تحدث عن الاستعارة ومانحدثه فى الأسلوب من طلاوة ، وتكلم عن السجع وأثره فى التعبير الأدبى ، ثم تحدث عن الكناية والإيجـــاز .

وهكذا ، نجد - وكما نرى فى النص - أن مفهوم البلاغة عند الجاحظ مرتبط بمفهوم الخطابة ، وكثيرا ما ذكرهما مترادفين ، وتتخذ كل منهما معنى الآخر ، وتتسم بمقوماته ، وتتميز بخصائصه .

إن جزالة اللفظ ، وسلامة النطق ، وحلاوة اللهجة التى تحدث عنها فى كلامة عن البلاغة ، ذكرها فى معرض حديثه عن الخطابة كما يتضح هذا الترادف فى حديثه عن حكم الجمهور الذى ينفى أثره فى تقويم النص الأدبى . وتلك قضية نقدية أخرى عالجها الجاحظ فى هذا النص ، وعرضها

(١) الجاحظ : البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - ص ٨٨ . ٩٠ جـ ١ .

فى مواضع أخرى من كتابه ، لقد كان يرى أن ذوق الجمهور لا يرقى إلى تقويم العمل الأدبى ، شعرا كان أو نثرا .

ونعود إلى مشكلة الترادف ، ونقول ، إنها لم تكن من وضع الجاحظ وحده ، وانما كانت المشكلة مفهوما سائدا فى عصره فهذا العتابى يقول عن البلاغة :

«كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . قال : فقلت له ، قد عرفت الاعادة والحبسة . فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهناه ، وياهذا ، وياهيه ، واسمه منى واستمع إلى وافهم عنى ، أولست تفهم ، أولست تعقل ، فهذا كله وماأشبهه عى وفساد .

وهذا عمرو بن عبيد يقول عنها[1] :

«قال عبد الكريم بن روح الفغارى ، حدثنى عمر الشمرى ، قال : قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟

ـ قال : مابلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، ومابصرك مواقع رشدك وعواقب غيك .

ـ قال السائل : ليس هذا أريد .

ـ قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول .

ـ قال : ليس هذا أريد .

ـ قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (إنا معشر الانبياء بكاء) أى قليلو الكلام . ومنه قيل رجل بكئ . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

- قال : قال السائل : ليس هذا أريد .

- قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ ، فى حسن الإفهام .

- قال : نعم .

- قال : إنك إن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فضل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب .

- قلت لعبد الكريم : من هذا الذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟

- قال : قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال ، ومن كان يجترئ عليه هذه الجرأة إلا حفص بن سالم»[1] .

وأنت واجد فى هذين النصين الكثير من المضامين التى ذكرها الجاحظ فى حديثه عن البلاغة والخطابة .

أقول ، إن البلاغة عند العتابى وأبى عمرو بن عبيد هى الخطابة ، وتحمل ماتحمله الخطابة من المعانى ، وتتميز عندهما بخصائصها ومقوماتها ، والبليغ عندهما هو الخطيب ، فلا يتلعثم ، وانما يجيد التوقف ، ويسلم من عيوب النطق .

وما نأخذه على الجاحظ فى «البيان والتبيين» انه لم يحدد مفهوم الصياغة بعمق ، وانه يفصل بين اللفظ والمعنى ، وكثير مانجده متمسكا بهذه الثنائية فى القضايا التى تحدث عنها ، بل نراه يفضل اللفظ عن المعنى .

وشأن الجاحظ هنا شأن نقاد العصر العباسى الذين عاصروه بل الذين جاءوا من بعده فقد كان هؤلاء يشبهون اللفظ الجميل بالثوب الجميل ، واللفظ القبيح بالثوب القبيح ، وان مصدر الجودة فى المعنى إنما مرده حلاوة اللفظ .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .

أقول ، لقد كان الرجل من أصحاب الصنعة ، وممن يستهويهم الشكل ، على حساب المضمون ، وهذه القضية عرضها أيضا فى كتابه «الحيوان» حيث يقول :

«سمعت أبا عمرو الشيبانى ، وقد بلغ من اسجادته لبيتين من الشعر ونحن فى المسجد أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا وكتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل فى الحكومة بعض العيب لزعمت ان ابنه لا يقول الشعر أيضا ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعانى ، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والحضرى ، وإنما الشأن فى اقامة وتخير اللفظ وسهولته وكثرة الماء وصحة المخرج ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصيغ وجنس من التصوير»[1] .

ومع اقتناعنا بشهرة هذا النص وتداوله منذ العصر العباسى .

ومع اقتناعنا بتأثر الكثير من النقاد القدامى به .

أقول مع إيماننا بهذا كله ، لكننا نلمس فيه بعض القصور فى المضامين الأدبية والقضايا النقدية .

وأنت واجد الجاحظ فى النص يتحدث عن اللفظ ، ويوجه إليه الاهتمام والعناية ، فالشعر عنده يتمثل فى الوزن والصياغة اللفظية ، وسهولة مخارج الألفاظ ، أما المضمون ، فنجده يطرحه أرضا ، فيصرح بأن المعانى مطروحة

---

(١) الجاحظ : الحيوان ص ٤٠ ـ الجزء الثالث .

فى الطريق ، ويزيد الطين بله حين يزعم بأن هذه المعانى يعيها العجمى والعربى والبدوى والقروى .

ونقول إنه من حق الجاحظ أن يتخذ المحسنات البديعية منهجا له فى أسلوبه فقد كانت هذه الصفة سائدة فى عصره والعصور التى تلته ..

نقول إنه من حقه هذا ككاتب مقال ، ولكن من حقنا أيضا أن نختلف معه فى هذه الثنائية بين اللفظ والمعنى ، ومن حقنا كذلك أن نرفض مزاعمه التى تقول بأن المعانى مطروحة أرضا يفهمها العجمى والعربى والبدوى والقروى والغريب أنه بينما ينكر قضية المعنى فى الشعر ، نراه فى مقالاته يتفنن المعانى .

واذا كان لنقاد العصر العباسى بعض العذر فى تفضيلهم اللفظ عن المعنى فما عذر النقاد المعاصرين فى القرن العشرين عندما يدافعون عن الجاحظ وقضية الشكل ، بل يزعمون بأنه كان يهتم بالمضمون بالاضافة إلى عنايته بالصناعة . .

«وهذا الاتجاه من الجاحظ يحتاج إلى شىء من التوضيح ، فقد يظن أن الجاحظ بتفضيله الألفاظ يحط من قيمة المعانى ، ويرى أنه لا قيمة لها ، وإنما القيمة للتعبير وحده ، والحقيقة أن الألفاظ خدم المعانى وضعت للدلالة على الأفكار ، فلولا الفكرة ما كان اللفظ ، فحسن الألفاظ يستلزم حسن المعانى فالجاحظ لم يرجح جانب الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، وإنما يرجحها من حيث ائتلافها مع معانيها وانسجامها مع ضخامتها ، وهذا ماعبر عنه أحيانا بالسبك وأحيانا بالصياغة ، ولو كان الغرض من الشعر هو إظهار الحقائق مجردة يدركها السامع من غير اهتمام بالبناء الذى تصيب فيه تلك المعانى لانعدم الشعر من آثار التعبيرية والفنية .

وبهذا نستطيع أن نقول إن الجاحظ مهتم بالفن ، مدافع عنه ، ولا يدور فى خلد أحد عند سماع ذلك ان الجاحظ يغض من قيمة المعانى ولا يعطيها حقها فى التعبير»[١] .

ومع اقتناعنا ان الالفاظ خدم المعانى ، ووضعت للدلالة على الأفكار .

ومع اقتناعنا انه لولا الفكرة ماكان اللفظ ، وان حسن الألفاظ يستلزم حسن المعانى . مع ايماننا بهذا كله ـ وكما قال الناقد المعاصر ـ لكننا نختلف معه فى دفاعه عن الجاحظ ، ونقول بأنه كان يهتم باللفظ على حساب المعنى .

واذا كان للنقاد والبلاغيين فى العصر العباسى العذر عندما يستهويهم اللفظ ، ويفضلونه على المعنى ، فما عذر نقاد الربع الأخير من القرن العشرين عندما يدافعون عن الجاحظ ومشكلة اهتمامه بالصنعة .

وأقول ، إن المتصفح لكتاب «البيان والتبيين» يلمس اسراف مؤلفه فى العناية بالشكل ، فالشعر عنده صياغة ، ولون من النسيج ، ونوع من التصوير واصبحت نظرته إلى الشعر تتجه إلى الجمال الخارجى فيه ، طارحا المضمون أرضا .

أعنى لقد تجسدت فى الكتاب سيطرة الرؤية المنطقية للغة وترادف البلاغة والخطابة ، كما يرتبط عنده الشعر بهذه الرؤية . ولعل مرجع سيادة النزعة العقلية انما يعود إلى اهتمام الجاحظ وغيره من كبار رجال المعتزلة وعلماء الكلام بالثقافات الأجنبية الوافدة عليهم . من يونانية وفارسية وبخاصة الفلسفة والمنطق اللذين نبغا فيهما قدامى اليونان .

كان من الحتم اللزام على الجاحظ أن يتأثر بالفكر الاغريقى الذى يقوم على الجدال والمنطق والمناظرة ، وجعل هذا الفكر فى خدمة مفهوم البلاغة .

---

(١) محمد طاهر درويش : فى النقد الأدبى عند العرب ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

ولكن العيب يتمثل فى تأثر النقاد والبلاغيين فى العصور التالية له بآرائه البلاغية حيث كانت رؤيتهم إلى الشعر لا تختلف كثيرا عن رؤيتهم إلى الخطابة . ولعل مكمن هذه الخطورة إنما يتجسد فى الاسراف فى هذه الرؤية المنطقية للغة ، هذا الاسراف الذى يشغلنا عما فى اللغة من خيال خصب .

«وكان من الممكن ألا يكون فى هذا كله خطر أو عيب لولا ما كان لكتاب البيان والتبيين من تأثير بعد ذلك على من جاءوا بعد الجاحظ . فقد كان دائما كتاب الجاحظ موردا خصبا استقى منه كثيرا ممن كتبوا فى البيان العربى والبلاغة العربية . واستمرت سيطرة الكتاب على الفكرة البلاغى حتى القرن الرابع ومابعده .

«وكان من أخطر النتائج التى ترتبت على تأثر النقاد والبلغاء بكتاب البيان والتبيين أن ظلت نظرتهم للشعر لا تفترق كثيرا عن نظرتهم للخطابة ، ولذا كان القاضى الجرجانى فى القرن الرابع الهجرى قد قال : إن الشعر يعتمد على الطبع والذكاء والرواية والروية . فإن أبا دواود قد قال فى الخطابة أيضا (رأس الخطابة وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام) .

«ولكن ما الخطر فى أن تكون نظرة علماء البيان الأولين للشعر مقايسة له مع الخطابة والمنطق والفلسفة ؟ الخطر راجع إلى أن مثل هذا الاتجاه سوف يؤدى بالضرورة إلى طغيان النظرة المنطقية للغة . تلك النظرة التى حذرنا منها (كروتشه) والتى سوف تقودنا إلى الإنصراف عما فى طبيعة اللغة من قوة خيالية وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق اتصالا بالشعر منها بالمنطق . كما لا يخفى أن مثل هذه النظرة سوف تجنح بالبلاغيين والنقاد إلى العناية بالشكل الخارجى . فإذا نظروا للشعر نظروا فيه إلى مايتصل باللفظ دون المعنى .وحتى لو نظروا للمعنى لم يفهم منه

إلا ما يتصل بالجوانب الشكلية ، كالفكرة الفلسفية أو المنطقية أو الأخلاقية واذا وصفوا الشعر قالوا : (والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم وأحسنه ماتلاءم نسجه ولم يسخف ، وحسن لفظه ولم يهجن . ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا . ولا السوقى من الألفاظ فيكون مهلهلا درنا) .

«وهذه أوصاف أكثر ماتكون صلة بالشكل الخارجى ، ولما كان مجال الشعر ليس العالم الخارجى وحده ، بل العالم الخارجى والباطنى معا فإن مجال البحث والنظر فيه لا ينبغى أن يقتصر على الشكل الخارجى»[١] .

والمتأمل فى «البيان والتبيين» يجد أن صاحبه قد اتخذ فيه منهج الاستطراد فى عرض قضاياه الأدبية والنقدية والبلاغية حتى يستعصى على القارئ أن يلمس فيه مشكلة نقدية مركزة يوجه إليها الجاحظ عدساته بحيث تستقر فى ذهنه .

وللانصاف للرجل نقول ، إنه لم يكن وحده الذى سلك هذا المنهج فى كتبه ، وإنما سار على هذا الضرب كل مفكرى عصره ، وللجاحظ ومعاصريه من النقاد والأدباء عذرهم فى هذا فقد ظهروا فى عصر تقدم فيه الفكر العربى الاسلامى ، حيث تلونت العلوم والفنون ، وكثرت الثقافات الوافدة من يونانية وفارسية ، وتأثر علماء ومفكرو العصر العباسى بهذا الفكر ونقلوه إلى لغتهم العربية .

ولما كان الأدب تأثير وتأثر فقد تغير مفهوم النقد عند النقاد ، وبعد أن كان علما يقوم على الذوق ، وفنا يستند إلى الصنعة والمفاضلة بين القدماء والمحدثين ، أصبح عند الجاحظ ومعاصريه يعتمد على البلاغة وهذه الثقافات

---

(١) محمد زكى العشماوى : قضايا النقد الأدبى ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

الوافدة من فلسفة ومنطق . هذا بالإضافة إلى أسلوب التلقين الشفاهى الذى كان يسود العصر وإلى حصيلة النقاد من التراث العربى والاسلامى .

ومع ذلك ، فقد كانت من الأسباب التى دفعت الجاحظ إلى تأليف هذا الكتاب رغبته وهو من أشهر رجال المعتزلة وعلماء الكلام فى الرد على أصحاب الشعوبية الذين حاولوا الإساءة إلى الاسلام . وقد أورد الجاحظ الكثير من النصوص الأدبية للرد بها على هؤلاء كسلاح للدفاع عن العرب وعقيدتهم .

«وقال صفوان الأنصارى فى بشار وأخويه ، وكان يخاطب أمهم :

ولدت خلدا وذيخا فى تشتمه ... وبعده خززا يشتد فى الصعد[1]

ثلاثة من ثلاث ولدوا فرقا ... فاعرف بذلك عرق الخال فى الولد

الخلد : ضرب من الجرذان يولد أعمى . والذيخ : ذكر الضباع وهو أعرج . والخزز : ذكر الأرانب ، وهو قصير اليدين لا يلحقه الكلب فى الصيد .

«وقال بعد ذلك سليمان الأعمى ، أخو مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر فى اعتذار بشار لإبليس وهو يخبر عن كرم خصال الأرض :

لابد للأرض إن طابت وإن خبثت ... من أن تحيل إليها كل مغروس

وتربة الأرض إن جيدت وإن قحطت ... فحملها أبدا فى اثر منفوس[2]

وبطنها بفلز الأرض ذو خبر ... بكل ذى جوهر فى الأرض مرموس[3]

ـ الفلز : جوهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس والآنك وغير ذلك .

---

(١) الصعد : جمع الصعود بمعنى العقبة الشاقة .
(٢) جيدت : مطرت بالمطر الغزير ، المنفوس : المولود .
(٣) المرموس : المدفون .

وكل آنية عمت مرافقها ... وكل منتقد فيها وملبوس
وكل ماعونها كالملح مرفقة ... وكلها مضحك من قول إبليس»[١]

«وقال صفوان الانصارى

متى كان غزال له يا ابن حوشب ... غلام كعمرو أو كعيسى بن حاضر
أما كان عثمان الطويل ابن خالد ... أو القرم حفص نهية للمخاطر
له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
إذا قالوا مروا فى الشتاء تطوعوا ... وإن كان صيف لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم واثقب زندهم ... وأورى بفلج للمخاصم قاهر[٢]
وأوتاد أرض الله فى كل بلدة ... وموضع فتياها وعلم التشاجر
وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا التشدق من حيى هلال بن عامر
ولا الناطق النخار والشيخ دغفل ... إذا وصلوا ايمانهم بالمخاصر[٣]
ولا القالة الأعلون رهط مكحل ... إذا نطقوا فى الصلح بين العشائر[٤]
بجمع من الجفين راض وساخط ... وقد زحفت بداؤهم للمحاضر[٥]

ـ الجفان : بكر وتميم ، والروقان : بكر وتغلب والفاران : الأزر وتميم . ويقال ذلك لكل عمارة من الناس وهى الجمع ، وهم العمائر أيضا : غار . والجف أيضا : قشر الطلعة ـ

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ص ٣١ جـ١ .
(٢) أثقب الزند : قدحه فأخرج منه النار ، وأورى الزند : اثقبه .
(٣) النخار : هو النخار بن أوس العذرى ، كان معاصرا لجميل الشاعر ـ دغفل : هو دغفل بن حنظلة .
(٤) مكحل : هو عمرو بن الأهتم المنقرى .
(٥) البداء : جمع باد ، ساكن البادية ، المحاضر ، المناهل يجتمعون عليها .

تلقب بالغزال واحد عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر
ومن لحروري وآخر رافص ... وآخر مرجي وآخر جائر
وأمر بمعروف وانكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يصيبون فصل القول فى كل موطن ... كما طبقت فى العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رءوسهم ... على عمة معروفة فى المعاشر
وسيماهم معروفة فى وجوههم ... وفى المشى حجاجا وفوق الأباعر
وفى ركعة تأتى على الليل كله ... وظاهر قول فى مثال الضمائر
وفى قص هداب واحفاء شارب ... وكور على شيب يضيئ لناظر(١)
وعنفقة مصلومة ولنعله ... قبالان فى ودن رحيب الخواصر(٢)
فتلك علامات تحيط بوصفهم ... وليس جهول القوم فى علم خابر

وفى واصل يقول صفوان :

فما مس دينارا ولا صر درهما ... ولا عرف الثوب الذى هو قاطعه

وفيه يقول أسباط بن واصل الشيبانى :

وأشهد أن الله سماك واصلا ... وانك محمود البقيبة والشيم(٣)

وبعد ، فإن البيان والتبيين للجاحظ من عيون التراث العربى ، ومنهلا عذبا اغترف منه الأدباء والنقاد والباحثون عبر العصرر الأدبية .

أما أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة فقد ولد فى عام ٢١٣هـ لأب فارسى واختلف الرواة فى مكان مولده ، فيقول البعض انه ولد فى بغداد ، ويذكر البعض الآخر انه ولد فى الكوفة . واغفلت المصادر ذكر رالده ، ولعل مرجع

---

(١) الكور : ادارة العمامة على الرأس .
(٢) العنفقة : مابين الشفة السفلى والذقن ، قبال النعل : زمامها .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥ ـ ٢٧ .

ذلك يعود إلى انه لم يكن ذا شأن اجتماعى . وانتقل ابن قتيبة إلى دار السلام من أجل العلم والدراسة ، وفيها درس على اسحاق بن راهوية ومحمد بن زياد الزيادى وأبى حاتم السجستانى وغيرهم .

وفى بغداد راح يقضى فترة من حياته بقصد المزيد من العلم والتدريس . وعمل قاضيا لكنه سرعان ماترك الوظيفة لإحساسه بأن مثل هذه الوظائف تجعل الإنسان لا خلاق له حيث يتصف بالنفاق ، وما كان الرجل بالمنافق ، ولم يتقرب من سلطان أو حاكم ، ولعل اعتداده بشخصيته هو الذى دفعه إلى ترك الوظيفة . وتوفى ببغداد عام ٢٧٦ هـ .

وتزود ابن قتيبة وهو فى عنفوان شبابه بعلوم وآداب الأمم الأخرى ، فكانت زاده ، كما قرأ الفلسفة اليونانية ، وبخاصة فلسفة أرسطو . وبالرغم انه كان من الفرس الموالى ، لكنه كان دائماً يدافع عن الاسلام والعروبة ، ونحى العنصرية جانبا ، ولم يتعصب للفرس ، وكثيرا ما آلمه هذه النزاعات الطائفية التى كانت تسيئ إلى الاسلام ، فجعل فكره سلاحا للدفاع عنه .

وكان ابن قتيبة من علماء اللغة والنحو والقرآن والتفسير والشعر ، والف الكثير من الكتب ، يذكر البعض انها ثلاثة وثلاثين ، ويقول البعض الآخر انها ثلاثمائة ، ونشك فى هذا الرقم الأخير ، ويبدو أن هؤلاء قد خلطوا بين عناوين الكتب والأبواب التى تشملها بعض الكتب[١] .

وأوسع هذه الكتب انتشارا كتابه النقدى (الشعر واشعراء) وقد ألفه فى أواخر أيامه ، وفى مقدمته يذكر منهجه فيقول :

«هذا الكتاب الفته فى الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان

---

(١) الطاهر مكى : دراسة فى مصادر الأدب ١٧٨ ـ ١٧٩ .

يعرف باللقب أو بالكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذه العلماء عليهم من الغلط فى ألفاظهم أو معانيهم ، وماسبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها . إلى غير ذلك مما قدمته فى هذا الجزء الأول .

«وكان أكثر قصدى من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو ، وفى كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

«فأما من خفى اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه الا بعض الخواص ، فما أقل من ذكريات من هذه الطبقة ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضا أخبارا . وإذا كنت أعلم انه لا حاجة بك إلى أن أسمى له أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان ، أو نسب أو نادرة ، أو بيت يستجاد ، أو يستغرب .

«ولعلك تظن ـ رحمك الله ـ أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعرا قديما ولا حديثا الا ذكره ودلك عليه ، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار ، والملوك والاشراف ، الذين يبلغهم الاحصاء ويجمعهم العدد .

«والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والاسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف . ولو أنفذ عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعرا الا عرفه ولا قصيدة الا رواها .

«ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، أو استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه .

«فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا انه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائله .

«ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية فى أرله ، فقد كان جرير والفرزذق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد همت بروايته .

«ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا . كالخريمى والعتابى والحسن بن هانئ وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سند ، كما أن الرديء اذا ورد علينا للمتقدم ، أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه»[1] .

فى هذا النص يعرض علينا ابن قتيبة منهجه الذى زعم فيه انه سيتناول الشعر والشعراء من الوجهة التاريخية والنقدية ، فهل التزم به ؟ .

قدم إلينا فى الصفحات الأولى بعض القضايا ، موضحا أصولها وقواعدها ثم راح يتحدث عن الشعراء مع عرض لأشعارهم .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر ص ٥٩ ـ ٦٣ الجزء الأول .

ويختلف ابن قتيبة فى كتابه عن ابن سلام ، فصاحب الشعر والشعراء لم يعترف بمنهج الطبقات ، واتخذ الجودة فى الشعر مقياسا فى نقده دون النظر إلى مرتبة الشاعر قديما كان أو محدثا . وهذا رأى نقدره له ، ونجده يشن نقدا مرا على الذين يقلدون دون دراسة هذا الشعر والتمييز بين حسنة وأرذله .

ونرى انه قد تأثر فى أحكامه بالمنطق ، وقد طغت هذه النزعة على ذوقه الأدبى وحسه النقدى .

وأثرت ثقافته اللغوية والنحوية وغريب القرآن ومعانيه فى منهجه الذى ذكره فى المقدمة وانه سيعرض فى كتابه للمشهورين من الشعراء الذين يحتج بشعرهم فى الغريب والنحو وكتاب الله .

ويدعو ابن قتيبة الشعراء المولدين أن يسيروا على هدى القدامى من الجاهليين فيما يتصل بشكل القصيدة ، وفى ذات الوقت يأمرهم بالابتعاد عن أفكارهم ومعانيهم وأخيلتهم .

«وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس لأن المتقدمين جروا على قطع الشيح الحنوة والغزارة»[1] .

ويعنى ابن قتيبة ان السير على هدى القدامى فيما يتصل بهذه المعانى والأخيلة والموضوعات إنما هو أرذل من التقليد .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦ ـ ٧٧ الجزء الأول .

وقد اشرنا من قبل ان هذه الموضوعات كانت تصلح للعصر الجاهلى لأنها تجسيد لبيئته ومجتمعه وعصره ، ومع اقتناعنا بأنها كانت مناسبة للشاعر الجاهلى ، لكنها لا تصلح كأخيلة للعصر العباسى .

ومع اقتناعنا بأنها لم تعد ملائمة للعصر العباسى ، لكن من حق الشاعر العباسى أن يجددها ، ولا يضيره تجديد هذه المعانى والأخيلة لأنها تتمشى مع الحضارة الجديدة .

أقول ، إنه من حق الشعراء المحدثين أن يتحدثوا عن القصور كمداخل فى قصائدهم بدلا من المقدمات الطللية ، ولا بأس عليهم فى هذا ، فقد حل القصر محل الرسم الدارس .

وجعل ابن قتيبة كتابه فى جزئين ، تحدث فى الجزء الأول عن مفهوم الشعر ، ولفظه ومعناه ، حسنه وقبيحه ، وأنت واجده فى هذا الجزء يخضع للمنهج المنطقى . ونراه وقد أوقع نفسه فى خطأ المنهج الاحصائى الحسابى الذى سبقه ابن سلام ، فقسم الشعر من حيث اللفظ والمعنى هذا التقسيم الجامد .

« تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كف خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم الا حين يبتسم

لم يقل فى الهيبة شئ أحسن منه .

وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعا ... ان الذى تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثيه بأحسن من هذا .

وكقول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة اذا رغبتها ... واذا ترد إلى قليل تقنع

حدثنى الرياشى عن الأصمعى ، قال :

- هذا أبدع بيت قاله العرب .

«وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل[١] .

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغادى الذى هو رائح[٢]

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شئ مخارج ومطالع ومقاطع ، وان نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واسلمنا الأركان ، وعالينا ابلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح .

ونحوه قول جرير :

ياأخت ناجية السلام عليكم قبل الرحيل وقبل لوم العذل

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

«وضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه عنه ، كقول لبيد بن ربيعة :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وان كان جيد المعنى والسبك فانه قليل الماء والرونق .

وكقول النابغة للنعمان :

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد اليك نوازع[٣]

---

(١) الشريف المرتضى .

(٢) المهارى : ابل منسوبة إلى قبيلة «مهرة بن حيدان» .

(٣) الحجن : جمع أحجن وهو المعوج .

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جيادا ولا مبينة لمعناه ، لأنه أراد : أنت فى قدرتك على كخطاطيف عقف يمد بها . وأنا كدلو لو تمد بتلك الخطاطيف ، وعلى أنى أيضا لست أرى المعنى جيدا » .

«وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول الأعشى فى امرأة :

وفوهـــــا كأقاحـــــى غـــداه دائـــم الهطـــل[1]
كمـــا شيـــب بـــراح بـــا رد مـــن عســـل النحـــل»[2]

وأنت واجد ابن قتيبة فى هذا المفهوم كان واقعا تحت تأثير المنهج المنطقى العقلى الذى تأثر به ، وعنده أن الشعر أربعة أنواع . فالنوع الأول هو الذى حسن لفظه ومعناه ، والنوع الثانى الذى حسن لفظه وحلا حتى اذا فتشته لم تجد فيه معانى سامية ، وأكد لنا فى شواهد هذا النوع الثانى ان مرجع جودتها يعود إلى جمال ألفاظها ، فهى جودة فى الشكل ، حيث تتميز الأبيات بالموسيقى وجمال الايقاع .

وفى ظنى ان ابن قتيبة كان يعنى خلو ابيات النوع الثانى من الموعظة ، ولهذا زعم افتقادها من المعانى السامية لأنها خلت من حكمة أو فكرة فلسفية أخلاقية .

وهكذا كان ينظر إلى معانى الشعر ، وعنده ان الشعر الذى يخلو من هذه الأفكار لا يحمل كبير معنى .

ونرى ان اعجابه ببيت الرثاء الذى ذكره لأوس بن حجر فى الضرب الأول انما يتجسد فى هذه الفكرة الفلسفية التى تتمثل فى عجز الانسان أمام قوة الموت ، وأنا زعيم بأن هذه الفكرة كانت فى ذهنه وهو يسجل اعجابه بهذا المعنى وغفلت عنه معانى انسانية عبر عنها البيت كالأسى الذى يصاب به الانسان عند فقده صديق أو عزيز . لقد وضع الفكرة الخلقية فى الاعتبار

(١) الأقاحى : جمع أقحوان . البابونج عند الفرس .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٦٤ ـ ٦٩ الجزء الأول .

الأول ، ونحى كل المشاعر الانسانية جانبا ، ولا غرابة فى هذا ، فقد كان الرجل من علماء الفقه والتفسير والحديث ، ومع ايماننا بهذه الأفكار التى أعجب بها ابن قتيبة ، لكنه ليس بمقدورنا أن ننكر الانسان بمشاعره وعواطفه

وفى القسم الثانى الذى جعل ابن قتيبة للحديث عن الشعراء ، وللتأريخ لشعرهم ، ذكر انسابهم وقصائدهم ، وما اتصل بهم من روايات .

وإذا كان ابن سلام قد صنف الشعراء فى كتابه إلى طبقات ، واخذ بمنهج الزمان والمكان فإننا نرى ابن قتيبة فى هذا الجزء لم يلتزم بمنهج معين اتخذه سبيلا له فى تعريفه للشعراء .

وبالرغم أن الرجل قد ابتدأ هذا القسم بالتعريف بالشعراء الجاهليين ثم الاسلاميين ، وجعل المخضرمين فى أجزاء أشبه ماتكون بالمبعثرة بينهما ، لكنه لم يصنفهم وفقا للعهد ، والأقدم منهم زمنا ، ولم يبتدأ القسم الثانى بالمهلهل أول من نظم القصائد ـ كما ذكرنا ـ لكنه يبدأ بامرئ القيس وزهير ابن أبى سلمى ثم كعب بن زهير . وقد تكون العلاقة بين زهير وكعب هى التى دفعته إلى هذا ، وان لم يكن ذلك كذلك ، فما الذى يجعله يقدم كعب ابن زهير عن طرفه بن العبد والحارث بن حلزه وعمرو بن كلثوم ، والثلاثة أقدم منه عهدا ، وأجود منه شعرا ، بل أكثر انتاجا .

وقد تكون هذه العلاقة صداقة بين شاعرين ، أو علاقة مشاركة فى قضية كما هو الحال فى جرير والأخطل والفرزدق شعراء النقائض[1] .

ونظن أن محصلة ابن قتيبة من المعلومات والروايات التى يعرفها عن الشاعر كانت من بين الأسباب التى جعلته لم يتخذ منهجا متميزا فى كتابه فى القسم الخاص بالتعريف بالشعراء .

---

(١) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ص ٢٦ ـ ٢٧ .

أعنى أن المادة العلمية التى كان يجمعها عن الشعراء هى التى فرضت عليه تقديم شاعر عن آخر بصرف النظر عن زمنه أو عصره .

وفى بعض الأحيان كان يتحدث عن شاعر ولا يتجاوز حديثه عنه صفحة من الكتاب ، حتى اذا ماجمع مادة علمية عنه راح يضعه فى مكان آخر ويستغرق فى كتابته عدة صفحات ، فقد كتب عن العباس بن مرداس مع الشعراء الجاهليين صفحة واحدة ، ثم عاد وذكره مع الشعراء الاسلاميين فى ثلاث صفحات .

كما يتجسد عدم الالتزام بمنهج متميز فى نقده النصوص ، فنراه يعرضها بلا شرح ، واحيانا يعلق عليها تعليقا اعتمد فيه على الذوق البعيد عن التحليل والتعليل .

وبينما يحظى بعض الشعراء بنصيب كبير من اهتمامه فى الترجمة ، نجده يمر على بعض الشعراء بسطحية ويعرض لهم عرضا هينا وبسيطا .

أما عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد فقد ولد عام ٢٤٧ للهجرة ، وقتل عام ٢٩٦هـ . وكان أبوه المعتز خليفة . وكذلك كان جده المتوكل هارون الرشيد وتنتهى هذه السلالة من الخلفاء إلى العباس بن عبد المطلب وقد أثرت هذه البيئة التى عاش فيها فى انتاجه الأدبى والنقدى واللغوى .

وبرغم انه كان يتسم بعظامية الشخصية وينتمى إلى الأمراء وخلفاء القصر لكن حياته لم تكن سهلة ويسيرة ، واصطدم بالدم فى مهده ، ولم ينج منه فى مجده .

كان ميلاده قبل مقتل جده المتوكل بأربعين يوما ، وتولى والده (المعتز) الخلافة ولم يتجاوز عشرين عاما ، وتميز بجمال الخلقة ، وحسن الخلق ، وحبه اللهو .

وكانت هذه الحياة ونعنى حياة اللهو والعبث الهاما شعريا للمعتز ، فكان شاعرا مجيدا ، ونظم فى الأغراض التى تتواءم وحياة القصر ، التى تتمشى مع حياته الخاصة ، فكان فى شعره لاهيا عابثا ماجنا ، وكان يطلب من المغنيين أن يغنوه ، لكن هذه الحياة لم تدم طويلا ، فقد كان القصر دائم الاضطراب ، ومرجع هذا تلك القلاقل التى كان يثيرها الأتراك الذين استشروا بنفوذهم وانتهت هذه الاضطرابات بخلعه عن الخلافة ثم مقتله فى عام ٢٥٥هـ وابنه عبدالله مازال طفلا فى التاسعة من عمره .

وهكذا ولد ابن المعتز مع سفك الدماء ، فكان مولده قبيل مقتل جده المتوكل بأربعين يوما ، حتى إذا مابلغ التاسعة شهد مصرع والده ، وهو الطفل الغض الذى لا يعى الأمور أو يقدر المشكلات ونظن أن طفلا يعيش فى هذه البيئة ، لابد وأن تلقى بظلالها على حياته ، فانعكست الآلام على طباعه وعانى اليأس والحزن ، وعاشت الآلام والأحزان مع حياة القصر بلهوها ونعيمها وصخبها .

ويكبر عبدالله ، ويأخذ عن والده حب اللهو والعبث ، وافتن بجاريه تدعى «نشر» وغلام يدعى «نشوان» وجعل عبثه ولهوه مقسما بينهما . ولكنه تفوق على والده فى صناعة الشعر ، ونظم فى الكثير من الأغراض ، واشتهر بالوصف الحسى وبخاصة الخمر واللهو والمجون . كما أنشد شعرا فى المدح والرثاء ، واهتم بالشعر التعليمى فنظم سيرة الخليفة المعتضد .

وعنى ابن المعتز بالفقه واللغة والنحو ، وكان من علماء النقد ، وله فى هذا العلم عدة كتب من أهمها «البديع» و «طبقات الشعراء» .

وجعل كتابه البديع مقصورا على هذا اللون من فنون النقد ، ووضع المفاهيم لأنواع البلاغة ، وفيه راح يرد على أصحاب الصنعة الشعرية .

«قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، ليعلم ان بشارا ومسلما وابا نواس ومن سلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، وتفرغ فيه وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ، وذلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف ، وانما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم اذا أتى نادرا ويزداد خطورة بين الكلام المرسل ، وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى فى البديع بصالح بن عبدالقدوس فى الأمثال ويقول لو أن صالحا نثر أمثاله فى شعره وجعل بينهما فصولا من كلامه لسبق زمانه وغلب على مد ميدانه ، وهذا أعدل كلام سمعته فى هذا المعنى»[1] .

فى هذا النص نرى ابن المعتز يرد على أصحاب الصنعة الشعرية ، ويقرر انه لم يكن لابى تمام قصب السبق فى اختراع البديع ، فقد تلمسه فى القرآن والحديث وشعر القدامى ، ويرى أن أبا تمام قد أعجب بهذه الصنعة وبالضرورة لمسها فى هذه الآثار التى سبقته وأفتن بها حتى طغت على شعره وأصبحت صنعته التى فرغ لها كأى عالم يتفرغ لعلم محدد ويجعل حياته من أجله .

ويرى ابن المعتز ان هذه الألوان من استعارة وجناس ومحسنات وتورية وطباق إنما هى أنواع من البديع كانت من صناعة القدماء وتحققت فى شعرهم كما وجد آثارها فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام ، وان الفرق

---

(١) ابن المعتز : البديع ـ تحقيق كرتفونسكى ـ ص ٢ .

بين شعراء الجاهليين والمحدثين ، انما يتمثل فى عفوية البديع عند الأوائل ، بينما كان صناعة وحرفه عند المحدثين وبخاصة أبى تمام ، لقد كان ينساب تلقائيا عند الأوائل ، بينما كان شعراء العصر العباسى يتعمدون صناعته ويجرون وراءه وقسم ابن المعتز البديع فى كتابه إلى خمسة ألوان :

١ ـ الاستعارة . ٢ ـ التجنيس . ٣ ـ المطابقة . ٤ ـ رد اعجاز الكلام على ماتقدمها . ٥ـ المذاهب الكلامية .

ويعرف الاستعارة بقوله :

«انها استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها ، من شىء قد عرف بها مثل قول الله تعالى : * واشتعل الرأس شيبا * .

وقوله تعالى :

* وآية لهم الليل نسلخ منه النهار * .

وعن التجنيس يقول :

«هو أن تجيئ الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها .

وقد تتجانس الكلمة فى الحروف والمعنى كقول الشاعر :

ويوم خلجت على الخليج نفوسهم .

«وقد تتجانس فى تأليف الحروف وتختلف فى المعنى كقول الشاعر :

ان لوم العاشقين اللوم

والمطابقة عنده مقابلات فى المعنى ، وتضاد فى الكلمات مثل :

(ترد الشعور السود بيضا والوجوه البيض سودا) » .

كما ذكر اعجاز الكلام كتنميق وتزين للشعر مثل قول الشاعر :

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعى الندى بسريع

وأما المذهب الكلامى فهو لون من الجدل العقلى ، والقدرة على توليد المعانى ، ويرى ابن المعتز ان هذا اللون الأخير قد تجسد عند المحدثين وبخاصة أبى تمام[١] .

ومع اقتناعنا بأن المعتز كان له هدف نقدى فى كتابه البديع ، حيث عرض علينا بالدراسة والتحليل للقدامى والمحدثين ، ومع اقتناعنا بأنه أول من وضع التعاريف لأنواع البديع والمصطلحات البلاغية فى هذا الكتاب .

أقول ، مع اقتناعنا بهذا كله ، فإنه فصل بين الشكل والمضمون فى النقد ، أو بالأحرى بين اللفظ والمعنى[٢] . حيث يرى ان ألوان البيان والبديع تضفى زينة وجمالا وحسنا على الشعر ، وعنده أن الألفاظ والصور الفنية لوحة من لوحات التزين للشعر ، واعتبر المعنى يمثل الجوهر ، بينما كانت الألفاظ وسيلة للبهرجة .

ونزعم أن الرجل قد تأثر فى كتابه بكتب أرسطو النقدية ، وكانت عيناه تتعلقان بكتابيه «الخطابة» و «فى الشعر» حيث تحدث فيهما عن الاستعارة والجناس والمطابقة ورد اعجاز الكلام ، وأما المذهب الكلامى فقد اعترف ابن المعتز انه أخذه عن الجاحظ فى حديثه عن المعتزلة وعلماء الكلام .

واذا كان ابن المعتز قد جعل كتابه «البديع» للرد على أصحاب مدرسة الصنعة الشعرية وعلى رأسها بشار بن برد والنواسى ومسلم بن الوليد والطائى ، فلا يعنى هذا الرد الحط من قيمتهم ، فالحقيقة انه من المتحمسين لهم ، فقد كان واحدا منهم ، وينتمى اليهم ، وجعل لهم كتابا تحت عنوان «طبقات الشعراء» تحدث فيه عنهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ - ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٨ .

وفى طبقات الشعراء ، يذكر ابن المعتز الاسباب التى دفعته إلى تأليفه كتابه فيقول :

«عقد للفكر طرفى ليلة بالنجوم ، لوارد ورد على من الهموم ، نفض عن عينى كحل الرقاد ، وألبس مقلتى حلل السهاد ، فتأملت فخطر على الخاطر فى بعض الأفكار ، أن أذكر فى نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار ، فى مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بنى العباس ، ليكون مذكورا عند الناس ، متابعا لما ألفه ابن نجيم قبلى بكتابه المسمى (طبقات الشعراء الثقات) مستعينا بالله المسهل الحاجات ، وسميته (طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء المتقدمين) .

«فكان أول ترجمة ابن نجيم بشار بن برد وماله من الأشعار والآثار ، فنظرت فى ذلك أن أجمعهم فى هذا الكتاب ، وخرج عن حد القصد ، فاختصرت ذلك وذكرت ماكان شاذا من دواوينهم ، وما لم يذكر فى الكتب من أشعارهم . واقتصرت على ماكان من مطولات قصائدهم»[١] .

هذه هى الأسباب التى دفعت ابن المعتز إلى تأليف هذا الكتاب ، وترجع هذه العوامل إلى اعجابه بشعر المحدثين من المعاصرين له ، وبخاصة أصحاب مدرسة البديع من أتباع الصنعة الشعرية وعلى رأسهم أبى نواس وابى تمام - وكما ذكرنا - كان الرجل من أنصار المدرسة الحديثة ، وأحد أتباعها ، ويؤكد هذا الاهتمام فى حديثه عن أبى الشيص فيقول تعليقا على قصيدة له :

«وبلغنى أن هذه القصيدة أنشدت عن المأمون فأفرط فى استحسانها ، ثم أنشد فى ذلك المجلس لجماعة من حذاق المحدثين ، مثل بشار ومسلم بن الوليد ونظرائهما ، فلم يهش لشئ من ذلك ، وفضل عليهم أبا الشيص .

---

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٨ - ١٩ .

«وأشعاره ونوادره وملحه كثيرة جدا ، ولكنا لا نخرج من شرط الكتاب لئلا يمله القارئ اذا طال عليه الفن الواحد ، ليحفظ هذه النكت والنوادر والملح ، وليستريح من أخبار المتقدمين وأشعارهم فان هذا شئ قد كثرت رواية الناس له فملوه ، وقد قيل : لكل جدة لذة ، والذى يستعمل فى زماننا انما هو أشعار المحدثين وأخبارهم ، فمن هاهنا أخذنا من كل خير عينه ، ومن كل قلادة حبتها»[١] .

وفى طبقات الشعراء نجد ابن المعتز يصنف كتابه على غير أسس منهجية ، واهتم بالدرجة الأولى بالحديث عن الشعراء الذين مدحوا خلفاء العباسيين ـ وامراء القصر والوزراء ووضعهم فى المرتبة الأولى من الكتاب ، ومرجع هذا الاهتمام يعود إلى انتسابه إلى القصر العباسى ، وأهمل الشعراء الذين تعرضوا للخلفاء بالنقد والهجاء ، ولم يذكرهم فى كتابه وعلى رأسهم ابن الرومى الذى تقول الروايات انه هجا والده المعتز .

ولهذا نرى ابن المعتز يقدم فى كتابه الكثير من الشعراء غير المشهورين الذين أغفل ذكرهم علماء الشعر والنقد من قبله ، بل إن البعض من هؤلاء الشعراء لم يمدحوا الخلفاء ، بالرغم انه ذكر فى مقدمة الكتاب انه جعل طبقاته للشعراء الذين مدحوا خلفاء وامراء ووزراء عصره . ومع هؤلاء الشعراء الذين مدحوا من سبقوه من الخلفاء ، نجده يعرض لطبقة من شعراء المجون واللهو ولعل مرجع هذا انما يعود إلى ضيق الناس فى عهده من ذكر الجاد والرغبة فى النوادر والملح والشواذ ، ومن هؤلاء الشعراء «هانى» و «مصعب» .

ومن بين الطبقات التى عرضها فى الكتاب طبقة شعراء الاعراب ومنهم ابن ميادة ، ويذكر ابن المعتز هذه الطبقة برغم اعجابه بمدرسة البديع ، ومن بين هذه الطبقات ، طبقة شعراء الحكمة ومن أقطابها صالح بن عبد القدوس .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .

وكانت ترجمته لأبى نواس أطول التراجم وأرفاها ، وتضمنت عددا كبيرا من الروايات والأخبار والقصائد والتعليق عليها . وتشغل هذه الترجمة خمس وعشرين صفحة ، ويذكر الروايات التى قيلت عنه ، ومنها انه كان مطبوعا ، وله أشعار حسنة وأشعار ركيكة[١] .

وبعض التراجم تقصر عنده حتى لا تتجاوز نصف الصفحة أو الصفحة ، كما حدث فى ترجمته عن البصرى أبى حفص وابن شرشير ، ويعقوب الشمار والاخيطل برقوقا واحمد بن ابى طاهر .

ومن الغريب ان نجد أبن المعتز جعل ترجمته لأبى تمام فى أربع صفحات على الرغم أن الطائى من عمالقة مدرسة الصنعة الشعرية .

واذا كان ابن المعتز من اتباع مذهب البديع فما حجته فى الاقتصاد فى هذه الترجمة القصيرة مع قطب من أقطاب المذهب . لقد كان حريا به أن يقدمه فى ترجمة أكثر عمقا من تلك التى عرضها .

وعلى الرغم ان ابن المعتز كان شاعرا ، وراوية للشعر وعلى الرغم انه كان ذواقة فى نقده عند عرضه بعض الأبيات التى كان ينقدها فى حس وتحليل نابعين من انفعال واحساس بجودة الشعر أو رداءته .

أقول على الرغم من هذا كله ، فإنه فى الكثير من الأحيان ، كان يعرض الأبيات الشعرية مع نقد عليها لا يتجاوز كلمة أو كلمتين ، وفى بعض الأحيان كان يذكر الأبيات بدون تعليق ، فيقول معلقا على أبيات بشـــار :

ومما يستحسن له قوله فى عقبة بن سلم :

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

حبيا صاحبى أم العلاء   واحذرا طرف عينها الحوراء
ان فى طرفها دواء وداء   لمحب ، والداء قبل الدواء
عذبتنى بالحب عذبها اللـ   ـه بما تشتهى من الأهواء
يقع الطير حيث يلتقط الحـ   ـب وتغشى منازل الكرماء
انما همة الجواد ابن سلم   فى عطاء ومركب أو لقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخو   ف ولكن يلذ طعم العطاء

ومما يختار من مديحه قوله فى ابن العلاء :

فتى لا يبيت على دمنة[1]   ولا يلعق الشهد الا بسم[2]

(١) الالدمنة : الحقد .
(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٠ .

obeikandl.com